سورة إبراهيم

وهي مع البسملة ثلاثٌ وخمسون آيةً وسبعةُ ركوعاتٍ

سورة إبراهيم مكية كلها عند الجمهور، غير أن ابن عباس وقتادة يريان أن قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا... إلى قوله ... فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ نزل بالمدينة (البحر المحيط). وقد روى النحّاس عن حِبْر أن هذه الآيات نزلت في قتلى المشركين عند موقعة بدر. وهناك رواية أخرى لأبي الشيخ عن قتادةَ بهذا المعنى. (روح المعاني)

الترابط: إن سورة إبراهيم استمرار لنفس الموضوع الذي تحدثت عنه السور السابقة، ولكنها تبين هذا الموضوع على أساس الرؤية الإلهية. بمعنى أن الله تعالى قد ذكر فيها أحوال الأنبياء السابقين للتدليل على صدق نبيّنا محمد ﷺ، موضحًا أن الأنبياء السابقين أيضًا مرّوا بنفس ما يمرُّ به محمد وواجهوا مثله ظروفًا غير مواتية ومع ذلك نجحوا في مهمّتهم.

خلاصة محتواها: إن هداية الناس هي الغاية الحقيقية من نزول القرآن الكريم. لقد كان الناس في ضلال، فنزلت هذه الشريعة لتخرجهم من الظلمات إلى النور. لقد سبق أن بعثنا الرسل لتحقيق نفس هذا الهدف، ومنهم موسى الذي أعلن للناس أنه قد جاء من قبْله الرسل لهذه الغاية نفسها. ثم بيّن الله تعالى سرّ نجاح رُسله، ألا وهو أنهم كانوا على الحق، ولذلك كانوا هم الغالبين.

ثم أوجز علامات الوحي الحق، ودعا الناس أن يروا ما إذا كانت هذه العلامات متوفرة في القرآن الكريم أم لا! ثم خاطب الذين أُخرجوا من الظلمات إلى النور أي

المسلمين وعلّمهم الطرقَ التي تساعدهم على الانتفاع من هذا الكلام العظيم.

كما وضّح أن هذه الثورة الموشكة أن تتفجَّر في العرب ليست وليدة هذه الساعة وإنما سبق أن خطّطنا لها منذ القدم، فقد دعانا إبراهيم قبل آلاف السنين لإحداث هذه التطورات. بل الواقع أن مكة إنما أُنشئت لهذه التطورات نفسها، ولا نمدّ أهلها بالثمرات بشكل غير عادي إلا لهذه الغاية، فكيف يمكن إذن أن نتغافل عنها اليوم.

ثم نبّه المؤمنين بأننا قد بيَّنّا واجباتكم على لسان إبراهيم، فحذارِ من أن تتغافلوا عنها أبدًا.

كما أنذر الكفار بأن إبراهيم إنما أسّس مكة لتكون مركزًا لتوحيد البارئ تعالى، فإذا لم تكفّوا عن الأعمال الوثنيّة فسوف تُطرَدون بعيدًا عنها، ليكون هلاككم دليلاً على صدق التوحيد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

العزيز: المنيع الذي لا يُنال ولا يُغالَب ولا يُعجزه شيء ولا مثل له. (الأقرب)

الحميد: المحمود. (الأقرب)

التفسير: كلمة "كتاب" في الآية خبرٌ مبتدأه محذوف، والتقدير: هذا القرآن كتاب أنزلناه إليك.

لقد بيّن الله تعالى هنا أن القرآن الكريم نور يُخرج به محمد ﷺ الناسَ من الظلمات إلى النور. ثم شرح هذا النور بقوله ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ موضحًا أن صراطه ﷻ هو النور الحقيقي. ذلك أن الجميع يحبّون النور، ولكنّهم مختلفون في شرحه. فمثلاً نجد اليوم فئة من الناس يسمّون أنفسهم أصحاب النور الحديث، ويقصدون بالنور الفلسفةَ العصرية والحضارة الحديثة والإباحيّة والعلمانية. بينما نجد المسيحيين يدّعون بأن المسيحيّة هي نور الله. ويزعم الهندوس أن الهندوسية هي نور الله. ونحن المسلمين نعلن أن الإسلام هو نور الله. فكل واحد يدّعي أنه صاحب النور. ولكن هذه الآية تذكّر بأن الطقوس الفارغة أو القشور الخالية من اللُبّ لا يمكن أن تُسمّى نورًا، بل النور اسمٌ لقرب الله تعالى. فالذي لا تقرِّبه خُطواته من ربِّه باستمرار لا

يمكن اعتباره من أهل النور أبدًا، وإنما صاحب هذا النور مَن يتقدّم إلى الله ويقترب منه فعلاً.

لقد ذكر هنا صفتي "العزيز والحميد" من صفات البارئ تعالى تدليلاً على وجوده ﷻ، لأن إحداهما تُشير إلى النور المتجلّي في أفعاله جلّ وعلا، والأُخرى تشير إلى النور المتجّلي في عِلمه الكامل سبحانه وتعالى. فمن حَظِيَ بصحبة هذا "العزيز" صار غالبًا على أعدائه، ونجا من ظلمات الشدائد والمحن. ومن كان مع "الحميد" تغلَّبَ على عدوّه الداخلي أي الشيطان، وخرج من ظلمات نفسه ومن وساوسَ وشبهات وجهل، واستحقّ الحمد.

ولقد حقق الله هذين الأمرين كليهما على يد النبي ﷺ، إذ أخرج العرب من حضيض الذلّة والهوان، كما طهّرهم من ظلمات الجهل والشرك والضعف الخُلُقي. لقد صاروا ملوكًا يسوسون العالم كلّه، كما أصبحوا أساتذة الدنيا بأسرها في مجال العلم والمعرفة. ويمكن تقدير حالة العرب البائسة قبل بعثة النبي ﷺ من الحادث التالي الذي سجّله التاريخ. فقد ورد في التاريخ أن المسلمين عندما شنّوا الحرب على بلاد الفرس في زمن عمر ﷺ، أمر مَلِكُهم قائدَ جيشه أن يردّ المسلمين عن الحرب بإغرائهم بالمال. وكان المبلغ زهيدًا جدًا أي دينارًا أو دينارين لكلّ جنديّ مسلم. (السيرة الحلبية).

وهذا يؤكد أن الشعوب المجاورة للعرب كانت تنظر إليهم بغاية الاحتقار والازدراء، وتعتبرهم فقراءَ مُدقِعين قليلي الهمة جدًّا. ولكن انظروا إلى تأثير الإسلام فيهم، إذ لم يفتحوا دولة الفرس فحسب، بل تمكّنوا أيضًا من بسط سلطانهم على الشام وفلسطين ومصر والأناضول وأرمينيا والعراق وإفريقيا الشمالية وأفغانستان والهند والصين. وذلك قبل انتهاء القرن الأول من نشأة الإسلام.كان معظم الصحابة من الفقراء أو من متوسطي الحال اقتصاديًا، ولكنهم بفضل الإسلام حازوا على ثروات هائلة، حتى إن الصحابي عبد الرحمن بن عوف ترك لدى وفاته من المال ما

يساوي ٢٥ مليون روبية، وهي ثروة هائلة جدًّا بمقاييس اليوم.

والثورة الثانية أيضًا بيّنة ظاهرة في العرب. كانوا لا يحبّذون القراءة والكتابة، ولم تكن لديهم أيّة علوم ولا معارف، ولكنهم بفضل الإسلام صاروا أساتذة العالم في كلّ مجال علميّ. لقد وضعوا الأسس لعلم التاريخ وعلم الجبر وعلم الصرف والنحو والمعاني والبيان واللغة. وهناك عشرات العلوم الأخرى التي اخترعوها أو أخذوها من حالتها البدائية وطوّروها إلى حد الكمال مثل: الفقه، فلسفة الفقه، المنطق، الفلسفة، الطب، السياسة، الهندسة، الكيمياء والفلكيات وغيرها. حتى إن الباحثين الغربيين قد اعترفوا أنه لولا المسلمون العرب، لما كان العالم كما هو عليه اليوم علمًا وثقافةً.

أما فيما يتعلق بالمجال الروحاني فقد حققوا فيه من الرقي ما لا نجد له مثيلاً في أي شعب منذ فجر الإنسانية.

اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

ويل: الويلُ: حلول الشر؛ وقيل هو تفجيعٌ. والويلُ: كلمة عذاب. والويلةُ: الفضيحةُ؛ البليّةُ (الأقرب).

التفسير: لقد وردت هنا كلمة "اللهِ" بعد صفتي "العزيز، الحميد" كعطف بيان، والمراد أن "صراط العزيز الحميد" يعني صراط الله الذي يملك الكون كله، وجميع المخلوقات شاهدة على كون الله حميدًا حيث لا تجد في خلقه أي عيب ولا فتور. ومن اهتدى إلى إلهٍ كهذا فلا بد من أن يلمس في نفسه تطورًا طيبًا غير عادي، وينال

سلطانًا على السماوات والأرض.

وما أروَعَ وما أعظَمَ ما حققه المسلمون مِن عز وغلبة بحسب هذا الوعد الإلهي، إذ كان خليفتهم يصدر الأوامر وهو جالس بالمدينة، فيهبُّ العالم الإسلامي كله ويستجيب للخليفة بكل إخلاص. هل تجدون أي مثال في تاريخ العالم لحكومة كهذه.

كذلك تحقق لهم "وعد الحمد" تحققًا منقطع النظير، حتى أصبحت كلمة "المسلم" بمثابة ذمة وضمانٍ لم يكن أحد يشك فيه.كما أن وعد المسلم كان يُعتبر بمثابة قضاء سماوي لا يُخلَف بل لا بد أن ينجز. ولا نزال نسمع إلى اليوم صدىً لمدائحهم يدوِّي في العالم. حتى إنك لتجدها مسجلة في قصص الغرب وقصائدهم. خذوا مثلاً حادث الصحابي أبي ذَر الغِفاري ﷺ. يذكر التاريخ أن أحد المسلمين ارتكب جريمة وحكم عليه بالإعدام. وعندما عُرض على الخليفة توسَّل إليه قائلاً: عندي أمانات لأبناء عمي الأيتام، أرجوك أن تمنحني مهلة يوم حتى أؤدي هذه الأمانات والواجبات إلى أصحابها، وسأعود إليك غدًا في موعد كذا لتنفذ فيَّ عقوبة الموت. فقال الخليفة: من الذي يضمن لي ذلك؟ وكان أبو ذرّ الصحابي في المجلس، فقال الرجل مشيرًا إليه: هذا يقوم بكفالتي ويحمل ذمّتي. ولم يكن للصحابي أية معرفة سابقة بالرجل، ولكن مروءته دفعته إلى حمل ذمته، فإن أخاه المسلم يأمل فيه أملاً جسيمًا. فذهب الرجل ومضى اليوم واقترب الموعد المضروب، ولكن الرجل لم يرجع. فقال الناس لأبي ذرّ في قلق: هل كنت تعرفه؟ فقال: لا، ولكني رأيت أن مسلمًا يسألني ذمتي فآتيته إياها، وما دام كان يثق بي فلم لا أثق به. وعندما أوشك الموعد أن ينتهي خاف القوم على حياة أبي ذر، وبينا هم كذلك إذ رأوا عن بعد شبحَ فارسٍ يحثُّ حصانه المنساب تحته كأنه يسابق الريح، ولما وصلهم نزل عن جواده ووقع على قدمي أبي ذرّ من شدة الإرهاق، معتذرًا إليه على التأخير، ووضح له أنه تأخر لكثرة الواجبات التي كان عليه أداؤها. فانظروا إلى روح الإيثار والتضحية التي عمل بها أبو ذر، ثم انظروا كم كان هذا

الرجل صادقًا في قوله وفيًّا بوعده. هل تجدون نظيرًا لهذا الوفاء في تاريخ الأمم الأخرى؟ وكما ذكرت فإن الكتّاب الإنجليز أيضًا قد دوّنوا حادث هذا المسلم العربي في قصصهم وروائعهم الشعرية.

وإليكم مثالاً آخر: لقد سجل التاريخ أن المسلمين فتحوا الأراضي السورية أول الأمر، ولكن بعضها وقعت مرة أخرى في أيدي المسيحيين، فاضطر الجيش المسلم للانسحاب، فأمرهم سيدنا عمر ﷺ بإرجاع الضرائب لأهل المنطقة. فردوها إليهم معتذرين لهم بقولهم: ما دمنا لا نستطيع الدفاع عنكم فلا يحق لنا أخذ الضرائب منكم. وكان أهل المنطقة من المسيحيين، وكان الغزاة الجدد من إخوتهم المسيحيين أيضًا، إلا أنهم تأثروا من حسن معاملة المسلمين لدرجة أنهم جاءوا إلى خارج المدينة لتوديع المسلمين، وهم يبكون على مغادرتهم قائلين: لو كان الجيش المسيحي مكانكم لسلبوا ما بأيدينا بدلاً من أن يردوا إلينا الضرائب كما فعلتم. ثم إنهم دعوا الله بأن يعيد المسلمين إليهم حاكمين مرة أخرى.

آه، ما أبعَدَ الشُقةَ بين مسلمي ذلك العصر وبين مسلمي اليوم. لقد كان المسلم عندئذ أكثر أهل الأرض أمانةً ووفاءً وسلمًا. أما اليوم فإن علماء المسلمين أنفسهم قد أفتوا بسلب أموال غير المسلمين، واعتبروا الغدر بالحاكم غير المسلم من صميم الإيمان، كما أفتوا أن قتل غير المسلم ثوابٌ ومكرمةٌ. وبالاختصار، فما من حسنة كانت تُعتبر مفخرةً وشرفًا للمسلم إلا وقد انعدمت اليوم في المجتمع الإسلامي. إنا لله وإنا إليه راجعون. يا ليت جماعتنا تدرك حجم المسئولية الملقاة عليها وتستردّ للإسلام مجده الغابر حتى ترى الدنيا مرة أخرى غلمان محمد رسول الله ﷺ متحلّين بالأخلاق المحمدية الفاضلة بحيث يجد الرائي في وجوههم تجليًا لوجه الله تعالى. فيجب أن يكونوا أمناء للغاية بحيث يُؤْثرون الموت لأنفسهم ولأهليهم جوعًا على أن يخونوا أمانات الآخرين؛ وأن يكونوا صادقين جدًّا بحيث يضحون بالحياة والمال والمنصب والوظيفة، ولكنهم لا يتفوهون بكلمة كذب واحدة؛ وأن يكونوا أوفياء بحيث إذا عاهدوا عهدًا

أوفوا به ولو على حساب حياتهم؛ وأن يكونوا ذوي همم عالية بحيث إذا عزموا على أمر نفّذوه ولو بفداء أرواحهم.

الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

يستَحبّون: استحبّه: أَحَبَّه؛ استحسنه. واستحب الكفرَ على الإيمان: آثَرَه (الأقرب).

يبغون: بغاه يبغيه: طَلَبَه. يقال: ابْغِني ضالتي أي اطْلُبْها (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى إن الذي يُعرض عن مثل هذا التعليم يكون مصيره واضحًا، إذ كيف ينال العز والحمد من يُعرض عن العزيز الحميد. ولكن قاتَلَ الله العناد، فإن الكفار المتعنتين يحرِمون أنفسهم من أفضال الله تعالى كما يتسببون في حرمان الآخرين منها، ولا ينهون غيرهم عن الإسلام فحسب، بل يَعرضون عليهم تعاليمه بشكل مشوَّه ممسوخ، ساعين لحرمان الآخرين من قبولها إلى الأبد.

إن عناد الإنسان- لسوء حظه - يدفعه إلى محاربة الحقيقة ومحوها، دون أن يدري أنه بذلك يرتكب جريمة قتل الآلاف قتلاً روحانيًا.

والمراد من قوله تعالى ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أنهم يتمنون -من جهة- أن يعثروا على السبيل المؤدية إلى الله تعالى، ولكنهم من جهة أخرى لا يريدون التخلّي عن عاداتهم القبيحة وسلوكهم الخاطئ المشين. والنتيجة أنهم يسمّون ما اخترعوه من طقوس وبدعات دينًا، ذلك لكي يخدعوا أنفسهم ويخنقوا صوت الضمير، فيَطمئنّون بهذه البدعات هم وأولادهم اطمِئنانًا موهومًا باطلاً، فيُحرَمون من نور الهدى. وبهذا

المفهوم سيكون "سبيل الله" هنا بمعنى الحق مطلقًا.

فالآية تبطل زعم الذين يقولون بوجود الصلحاء المقربين عند الله حقًّا في كل ديانة وأمة. لأن الله تعالى يقول: إن صراطي المستقيم لن يهتدي إليه إلا من يتّبع التعاليم التي أنزلت من لدنّي لا غير. ولكن الذي لا ينفك مصرًّا على إتباع ما وجد عليه آباءه، فلا يمكن أن يُعتبر باحثًا عن سبيل الله ﷻ، وإنما هو يبحث عن سبيل آبائه، وما دام متجهًا إلى غير سبيل الله فأنَّى له أن يصل إلى الله جل شأنه؟ إن الذي يبغي عوجًا، أي يتجه إلى جهةٍ خاطئة سيصل إلى غاية خاطئة حتمًا.

وقد تعني الآية أنه يبدو للرائي لأول وهلة أن الكفار يديرون حوارًا جادًّا عن الإسلام ليفهموا موقفه ويعرفوا الحق ويتبعوه، ولكن الحقيقة أنهم يجادلون أهل الإسلام تعصبًا وعنادًا فقط، لا بحثًا عن الحق. وبما أنه لا يمكن أن يعثر على سبيل الله إلا الذي يتمسك بالحق فسوف يبقى هؤلاء الكفار محرومين من الهداية. ونظرًا لهذا المفهوم تكون كلمة "سبيل الله" بمعنى الإسلام.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

لِيُبيِّن: بيَّنه: أوضحه. (الأقرب)

يُضِلُّ: أضَلَّه: أهلكَه. (الأقرب)

التفسير: لقد قال البعض إن قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) يعني أنه لا ينبغي أن يترل الوحي على أي رسول إلا بلسان قومه فقط.

ولكن هذا خطأ. والمعنى الصحيح هو أنه يجب أن يترل عليه الوحي بلسان قومه، لأنه لو نزلت عليه الرسالة بغير لسان قومه لصعب عليه تبليغها لهم. ولكن لا حرج في نزول بعض الوحي عليه بلسانٍ غير لسان قومه كآية ومعجزة.

لقد قمت بتوضيح هذا الأمر لأن بعض معارضي سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام يعترضون على إلهاماتٍ لحضرته قائلين: كيف يمكن أن يكون صادقًا من يدّعي أن الله تعالى قد أوحى إليه بغير لسان قومه أيضًا؟ (محمديه باكت بك ص ١٧٩).

والحق أن الوحي الذي نزل عليه بلغات أخرى غير العربية والأردية، لم يكن إلا آية ومعجزة من الله تعالى. لقد نزل عليه الوحي بالعربية لأنها لغة دينيّة ورسميّة للإسلام ولغة قومية للمسلمين، ونزل عليه الوحي بالأردية أيضًا لأن الناطقين بها كانوا أول من خاطبهم حضرته. والواقع أننا لو درسنا الوحي النازل عليه لوجدنا أن الجزء الأساسي والحيوي منه كان إما بالعربية أو بالأردية، وما نزل عليه بلغات أخرى ليس مما يحول فقدانُه دون تبليغ دعوته، وإنما كان بمثابة معجزة تدعم دعوته.

لقد أثار النصارى وخاصة القسيس ويري اعتراضًا على شخص النبي ﷺ، بناءً على هذه الآية، إذ قال: هذه الآية تبين أن محمدًا بُعث للعرب فقط. وأضاف قائلاً: وفي هذا دليل على جواز ترجمة القرآن إلى لغات أخرى (تفسير ويري للقرآن، تحت هذه الآية).

وهناك تعارض في قوله هذا: إذا كان محمد ﷺ رسولاً إلى العرب فقط، ولا علاقة لرسالته بالأمم الأخرى فلا ضرورة لترجمة الوحي النازل عليه إلى لغات الشعوب الأخرى. وإذا كان هناك جواز لترجمة القرآن فثبت أن رسالته كانت موجهة إلى الأمم الأخرى أيضًا.

بيد أن الرد الحقيقي على اعتراضه هو أن الآية لا تعني أبدًا أن محمدًا ﷺ كان رسولاً إلى العرب فقط، لأن القرآن الكريم يصرح بكل جلاء ووضوح في أماكن عديدة منه بأنه كان رسولاً إلى الناس جميعًا. يقول الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ

شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧-١٥٩)

لقد ذكر الله هنا خمسة براهين على كون النبي الكريم ﷺ مبعوثًا إلى الدنيا كلها وهي كالآتي:

أولها: لقد أمر الله أهل الكتاب هنا بتصديق هذا النبي، ووَعَدهم برحمة واسعة خاصة، فقال:﴿فسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾.

وهنا نسأل إذا كان محمد ﷺ مبعوثًا إلى العرب فقط فلمَ وعد الله أهل الكتاب بالرحمة الخاصة شريطةَ أن يتبعوه.

ثانيها: يؤكد القرآن أن هناك أنباء في التوراة والإنجيل عن بعثة النبي ﷺ. وإذا كان محمد لم يبعث إلى أهل الكتاب فما الحاجة أن تسجل أسفارهم البشارات عن مجيئه، خاصةً وأن المكيين العرب ما كانوا يؤمنون بالتوراة والإنجيل، في حين أن الأنباء إنما تساعد الناس على معرفة صدق المدّعي. فما دامت أنباء مجيئه مسجلة في التوراة والإنجيل فلا بد من التسليم بأن الإيمان بمحمد ﷺ كان فرضًا واجبًا على اليهود والنصارى، إذ لم يشر القرآن إلى هذه الأنباء إلا ليؤكد ضرورة إيمان أهل هذه الأسفار بالنبي الموعود.

ثالثها: تؤكد الآية أن هذا النبي يأمر أهل الكتاب بالمعروف وينهاهم عن المنكر. فلماذا يسدي إليهم هذا النصح إذا لم تكن رسالته موجهةً إلى أهل الكتاب؟

ورابعها: تخبر الآية أن مَن يؤمن مِن اليهود والنصارى بمحمد فسوف ينال الفوز والنجاح. ونقول: لو كان محمد ﷺ مرسلاً إلى العرب دون غيرهم، للزم أن يعاقب الله من يصدّقه من أهل الكتاب بدلاً من أن يشملهم بإنعامه وفضله.

هذه الأدلة الأربعة تؤكد أيما تأكيد على أنه سواءً كان سيدنا محمد ﷺ مرسلاً إلى أحد أم لا فإنه كان مرسلاً إلى اليهود والنصارى حتمًا.

خامسها: وهو برهان غاية في الوضوح والصراحة كما أنه نتيجة منطقية لما سبق ذكره، حيث يأمر الله رسوله:﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ مما يؤكد أنه لم يبعث إلى اليهود والنصارى فحسب، بل إلى الإنسانية جمعاء.

ثم هناك آية أخرى توضح الموضوع بجلاء:﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ:٢٩)

كما أعلن النبي ﷺ صراحة بقوله: (بُعثتُ إلى الأَحمر والأسود) (مسند أحمد ج ٣ ص ٣٠٤) وهم العجم والعرب.

وفي رواية "بُعثتُ إلى الناس عامة" (مسند أحمد ج٣ ص٣٠٤).

وفي رواية أخرى: "أُرسلت إلى الخلق كافة" (مسلم، المساجد؛ الترمذي، السيَر).

إن جميع هذه الآيات والأحاديث تدل دلالة واضحة على أن النبي الكريم ﷺ كان مبعوثًا للعالم أجمع، وأن اعتراض الكتّاب النصارى باطل لا أساس له. كما تؤكد أن الوحي يترل على النبي بلسان قوم يخاطبهم أولاً، فيقوم هؤلاء بنقل رسالته إلى الأمم الأخرى بعد أن يستوعبوها ويفهموها بأنفسهم.

ويتضح من الآية التي نحن بصدد تفسيرها أن اللغة العربية هي أم اللغات كلّها، لأن الرسول المبعوث في العرب هو الذي عُهد إليه إصلاح الناس كافة. فجعلُ الوحي النازل باللغة العربية هدايةً للعالم كله يؤكد كون العربية أُمًّا للغات كلها بطريق أو

بآخر، وأن اللغات الأخرى لغات مشتقة منها.

كما أن الآية تمثل دحضًا للآريين –وهم فرقة من الهندوس– الذين يقولون بأن كلام الله يجب أن يترل بلغة لا يتكلم بها ولا يفهمها أحد حتى تتم المساواة بين الناس (ستيارت بركاش باب ١٤ ص ٤٩٨). ولكن القرآن يعارض هذه الفكرة الرديئة قائلاً: يجب نزول الوحي بلغة يتحدث بها الناس حتى يشرحه النبي لقومه فيفهموه. فما الجدوى من إنزال الوحي بلغة لا يتكلم بها أحد ولا يفهمها أحد؟

ويمكن كشف فساد هذه العقيدة الآريّة بطريق آخر أيضًا، وذلك أن شريعتهم "فيدا" وإن كانت قد نزلت بلغة غير مفهومة –كما يزعمون– فإما أن الرِشّيين (وهم كبار صلحائهم الأوائل) لم يفهموها لدى نزولها، وهكذا يصبح إنزالها عبثًا، أو أن الله تعالى يكون قد فهّمهم إياها، فلم تعد إذن هناك أية مساواة يدّعون بها! وإذا كان الناس العاديون موجودين عندئذٍ إلى جانب الرِشّيين، وشرح الله لغة الفيدا لهؤلاء جميعًا فلا شك أنهم صاروا متساوين، ولكن لم تبقَ المساواة بين هؤلاء وبين الذين جاءوا بعدهم ممن يجهلون لغتها، بل الحق أن معظم زعمائهم الدينيين أنفسهم لا يفهمون اليوم لغة شريعتهم "الفيدا".

وبما أن إمام هذا العصر الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام قد تلقى معظم الوحي باللغة الأردية –بعد العربية– فلذا أرى بناءً على هذه الآية أن الأردية ستكون اللغة السائدة في الهند في المستقبل، ولن تستطيع أية لغة الوقوفَ في وجهها.

لقد أردف الله قوله ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ بقوله ﴿فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء﴾ ليشير إلى أن الذي لا تتيسر عنده الوسائل لفهم الدين الحق لا يُدخله الله في عداد الضالين، بل الضالّ المجرم هو من قامت عليه الحجة وبلغه الأمر بشكل واضح صريح ومفهوم ومع ذلك يرفضه. ومعنى ذلك أن الله تعالى لا يصدر القرار بضلال أحد إلا بعد تبيين الأمر له، كما أنه لا يعاقب الذين حُرموا من الإيمان لأن رسالة دينه الحق لم تبلغهم بصورة واضحة نقية؟

إنني أود هنا إبطال التهمة التي يوجّهها إلينا الأحمديون اللاهوريون• إذ يزعمون أننا نحن الأحمديين التابعين لنظام الخلافة نعتقد أن كلَّ من لا يؤمن بسيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام سوف يعاقبه الله تعالى- سواء بلغته دعـــوته أم لم تبلغه. وها إني أقولها علنًا إنها تهمة باطلة وبهتـــان مبين. إذ كيف يمكن أن نُفتي بهذا والقـــرآن الشريف يعلن صراحةً أن فتوى الضلال والهلاك ضد أي إنسان إنما تصدر بعد تبيين الأمر له وإقامة الحجة عليه.

وأكد بقوله ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أنه غالب وقادر على إنزال العقاب على من يشاء، ولكنه ذو حكمة بالغة أيضًا، فلا يعاقب أحدًا بدون مبرر.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ إِن فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

ذَكِّرْ: ذكَّرَ الناس: وعَظهم. ذكّره إياه: جعله يذكر (الأقرب).

صبّار: صيغة المبالغة من الصبر.(وانظر أيضًا شرح الكلمات للآية ٢٣ من سورة الرعد).

شكور: صيغة المبالغة من الشكر. شكره وشكر له: أثنى عليه بما أولاه من المعروف (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: لقد عهدنا إليك نفسَ المهمة التي عهدناها إلى موسى، فعلى الناس – سواء الموافقين منهم أو المعارضين – أن يضعوا أحوال

• هم فئة أرادت إلغاء الخلافة في الجماعة الإسلامية الأحمدية، وانشقوا عنها تاركين مركزها قاديان ومتخذين مدينة لاهور مركزًا لهم، واشتهروا باسم الجماعة اللاهورية، وكان أول رئيس لهم المولوي محمد علي المحترم. (الناشر)

موسى في الحسبان عند مناقشة أمر نبوتك.

والمراد من قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أن أمة موسى عليه السلام صبروا على الشدائد فجنوا ثمارًا طيبةً لصبرهم. كذلك لا بدّ لكم أيها المسلمون من أن تواجهوا شتّى المصائب والمحن، ولا مناصَ لكم من أن تصبروا عليها وتثابروا حتى يكون النجاح حليفكم. كما يجب أن تتذكروا أن أمة موسى عندما تنكّروا لنعم الله نزل عليهم الغضب والعذاب. فانظروا إلى نعم الله دائمًا نظرة تقدير وشكر، وحذارِ أن تجحدوها وإلا سيصيبكم ما أصابهم.

وبقوله تعالى ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ﴾ علّمنا طريقين لإخراج الناس من الظلمات إلى النور: الأول: الترغيب في نعم الله وأفضاله، والثاني: الترهيب من عقابه وعذابه، لأن "أيام الله" تعني الزمن الذي أنزل الله فيه نِعمه وبركاته خاصة، وأيضًا تعني الزمنَ الذي صبّ الله فيه عذابه بشكل خاص.

إن العلمانيين في هذا العصر يركّزون على قولهم: ما قيمة الإيمان الذي يكون نتيجة التخويف والترهيب؟ ولكن الواقع أن زعمهم هذا يتنافى مع الفطرة الإنسانية، لأننا نجد أن الخوف هو الذي يدفع القطاع الأكبر من الناس لاتخاذ الخطوة الأولى إلى الإيمان. ولولا تذكيرهم مرة بعد أخرى بمؤاخذة الله وعقابه لبقُوا محرومين من الخير كليّةً. فالشريعة الكاملة لا تهيئ الهداية للناس الذين هم كاملون في إيمانهم وفي حالتهم الروحانية فحسب، بل إنها تصف العلاج للذين هم دونهم أيضًا.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ

نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

يسُومون: سامَ فلانًا الأمرَ: كلّفه إياه، وأكثر ما يُستعمل في العذاب (الأقرب). السَّوْم: أصله الذهابُ في ابتغاء الشيء، فهو لفظ لمعنًى مركّب من الذهاب والابتغاء، وأُجريَ مجرى الذهاب في قولهم: سامت الإبل فهي سائمة، ومجرى الابتغاء في قولهم سُمتُ كذا، قال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ (المفردات).

يُذبِّحون: الذبحُ: الهلاك (التاج).

بلاءٌ: البلاءُ: الاختبارُ يكون بالخير والشر (الأقرب). وفي القرآن الكريم: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ (الأعراف ١٦٩).

التفسير: إن الذبح يعني الهلاك أيضًا كما ذكرتُ آنفًا. وبما أن التوراة تذكر أن فرعون كان يأمر بقتل مواليد الإسرائيليين بإلقائهم في النهر، لذا فمن الأنسب تفسير كلمة "يذبّحون" بمعنى يُهلكون. فقد ورد في التوراة "ثم أمر فرعون جميع شعبه قائلاً: كلُّ ابن يولد تطرحونه في النهر، لكن كلّ بنتٍ تَستحيونَها" (الخروج ١:٢٢).

وقوله تعالى ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ إشارة إلى المعاملة المخزية المهينة التي كان فرعون يعامل بها بني إسرائيل من فرض الضرائب الثقيلة عليهم أو تسخيرهم في أعمال شاقة دونما أجر. فقد ورد في التوراة:"فجعلوا عليهم رؤساءَ تسخير لكي يُذلّوهم بأثقالهم. فبنوا لفرعون مَدينتَي مخازنَ فِيثومَ ورعمسيسَ" (الخروج ١:١١). كذلك جاء فيها: "ومرّرُوا حياتَهم بعبودية قاسية في الطين واللَّبِن وفي كل عمل في الحقل. كل عملهم الذي عملوه بواسطتهم عنفًا" (الخروج ١:١٤).

والبلاء هو الاختبار سواء كان بالإيلام أو الإنعام. ولما كان بنو إسرائيل قد اختُبروا بقتل مواليدهم الذكور وهو إيلام، وبحياة مواليدهم الإناث وهو إنعام، لذلك

استخدم الله تعالى هنا كلمة البلاء التي تؤدي مَعْنَيَي الاختبار كليهما.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

تَأَذَّنَ: تأذّن الرجلُ: أقسَم. تأذّن الأمر: أعلمه. تأذّن الأمير في الناس: نادى فيهم يهدّد وينهى.

كَفَرتُم: كَفَرَ نعمة الله وبنعمة الله كفرانًا: جَحَدَها وسَتَرها، وهو ضدُّ الشكر. وفي الكليّات: الكفرُ: تغطيةُ نعم المنعم بالجحود (الأقرب). (راجع أيضًا شرح الآية ٦ من سورة إبراهيم).

التفسير: تذكّرنا الآية بقاعدة هامة رائعة ألا وهي أن الرقي بنوعيه المادي والروحاني منوط بالشكر. والشكر -كما أسلفنا- هو اعترافك بالصنيع وثناؤك على صانعه. وإنما يشكر الإنسان ربه على نعمه إذا أحسن استخدامها، لأن أحدًا إذا وهب لك شيئًا فأسأت استخدام هبته فمهما شكرته عليها وأثنيت عليه بلسانك فهو ثناء فارغ لا قيمة له. بل الشكر الحقيقي أن تحسن استخدام هديته وفي محلها. هذه القاعدة نفسها سارية في المجالات كلها. إذا أحسنت استخدام علمك ازددت علمًا، وإذا أحسنت استخدام أعضاء جسمك من يد وعين وأنف وأذن وغيرها فلا بدّ من أن تزداد هذه نشاطًا وفاعلية. فهذه -كما أسلفت- قاعدة عامة، وهي سرّ لكل نجاح ورقي، سواء فيها الهندوسي والمسلم والمسيحي.

إن المسلمين اليوم يسيئون استغلال أموالهم فيتردّون اقتصاديًا، بينما يُحسن

الهندوس استخدامها فيزدهرون. ونفس الحال بالنسبة للأمور الروحانية. خذوا القرآن مثلاً، فلما كان المسلمون يعملون به عملاً صحيحًا فاقوا العالم كله بفضل تعاليمه، ولم تستطع أية ملّة ولا طائفة الوقوف في وجههم، سواء الفلاسفة أو أهل المنطق أو اليهود أو النصارى أو غيرهم. ولكن انظروا اليوم كيف أن أهل الفيدا والتوراة والإنجيل يتباهون أمامهم كذبًا بفضل كتبهم على القرآن، ومن جهة أخرى أصبح القرآن هدفًا لهجمات العلمانيين وأهل العلوم العقلية، ولكن المسلمين -لسوء أعمالهم- لا يستطيعون الرد عليهم. لقد كان الإسلام في الماضي يبتلع الكفر، أما اليوم فإن الكفر يحاول أن يبتلع الإسلام.

لقد أهان المسلمون أنفسُهم "الإسلامَ" لدرجة أن بعضهم صاروا يقولون اليوم بأن كذا وكذا من أحكام القرآن أصبح عقيمًا لا جدوى منه، وأن كيت وكيت من تعاليم الإسلام أصبح قديمًا لا يصلح للعمل به اليوم. هداهم الله، حتى لا يعزوا إلى الإسلام عيوبهم وتقصيراتهم. فإنهم لا يعملون بتعاليم القرآن عملاً صحيحًا، ومع ذلك ينسبون إليه سوء نتائج أعمالهم!

وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

غنيٌّ: غنِيَ فلانٌ غِنىً وغَناءً: ضدُّ فقَرَ، وكان ذا وفرٍ. غنِيَ به عن غيره: اكتفى به. الغنيُّ: المكتفي من الرزق. وهو غني عنه أي مستغنٍ (الأقرب). والغِنى: عدمُ الحاجات. (المفردات)

التفسير: يقول موسى عليه السلام: يجب ألا تغترّوا بما يهيئ الله لكم من أسباب الهدى ببعث الأنبياء فتظنوا أنه يفعل ذلك عن عَوز وحاجة. كلا، بل إنه يبعث الرسل لصالحكم أنتم، لا لنفسه، لأنه غني عن العالمين. فالآية تقدم ردًّا حاسمًا لما يثيره العلمانيون في هذا العصر من اعتراض قائلين بأن الله تعالى يدعو العباد لقبول رسالته، وهذا دليل على كونه محتاجًا إليهم. ولكن الآية تعلن أن الله غني، ومتى يحتاج الغني إلى غيره؟! كما أنه تعالى "حَمِيدٌ"، يريد إنقاذ الغرقى الروحانيين.

لقد لفت القرآن الكريم هنا الأنظار إلى أمر هام ألا وهو أنه ليس من الضروري أن يقوم الإنسان بكل عملٍ لصالحه الشخصي، بل هناك أعمال يقوم بها الإنسان إحسانًا إلى الآخرين وسدًّا لحاجاتهم. ولكن المغرضين يقيسون أعمال الآخرين بجشعهم هم، فيظنون خطأً أن الإنسان لا يقوم بأي عمل إلا لنفسه. وشتّان بين ما يفعله أحد عن حاجة ولمصلحة شخصية وبين ما يفعله غيره إحسانًا وإكرامًا للآخرين.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إلا اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

نَبَأ: النبأ: الخبر، يُقال: أتاني نبأ من الأنباء. وقال في الكليات: النبأ والأنباء لم يردا في القرآن إلا لما له وقعٌ وشأن عظيم (الأقرب).

أيديَهم: اليدُ: الكفُّ، أو من أطراف الأصابع إلى الكتف، والجمعُ أيدٍ ويُدِيٌّ.

وجمع الجمع: أيادٍ. وأكثرُ استعمال الأيادي في يد النعمة. واليد أيضًا: الجاهُ والوقار، ويُقال: له يدٌ عند الناس أي جاهٌ وقدْرٌ؛ الطريقُ؛ القدرةُ والسلطان والولاية، يُقال: ما لك عليه يد أي ولايةٌ؛ المِلكُ؛ الجماعةُ؛ الغياثُ؛ النعمةُ والإحسان تصطنعه. يقال: هذا في يدي أي في مِلكي، والأمر بيد فلان أي في تصرفه. ويدُ الريح: سلطانها (الأقرب).

مُريب: أرابَ زيدًا: أقلقه وأزعجه (الأقرب).

التفسير: في قوله ﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إلا اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ إشارة إلى بعثة الرسل في أمم أخرى، الذين لم يرد ذكرهم في القرآن والتوراة، إذ بدأ بعد عاد وثمود النسلُ الإبراهيمي الذي سجّل القرآن والتوراة تاريخَ الأنبياء المبعوثين فيهم. فالمراد من قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ الشعوبُ الأخرى التي لم تكن من نسل إبراهيم، والتي لا يعلمها إلا الله.. أيْ لم تسجَّل أحوالهم في الكتب السماوية التي لا تزال محفوظة من يد التحريف إلى حد ما. فالآية تشكل دليلاً على أن الله تعالى لم يزل يبعث الأنبياء في هذه الشعوب في الفترة التي كان يبعث فيها أنبياء آخرين في النسل الإبراهيمي. وتقول بعض المصادر التاريخية أن النسل الإبراهيمي كان متزامنًا مع النسل الثمودي. وإذا كان هذا القول صائبًا فمعنى ذلك أنه حتى منذ الفترة الثمودية لم يزل الله يبعث الرسل في أمم أخرى أيضًا.

لقد اختلف المفسرون كثيرًا في معنى قوله تعالى ﴿فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ وقد وقعوا في هذه المشكلة بسبب حرف الجّر "في". فقال بعضهم بأن المراد: أن المعارضين عندما سمعوا قول الأنبياء ردّوا أيديهم في أفواههم، تعبيرًا عن حيرتهم الممزوجة بالازدراء والسخرية (ابن كثير). وهذه العادة شائعة بكثرة لدى النسوة في بلادنا. وربما هذا يماثل قولهم: فلانٌ لطم وجهه أي تحير في أمره.

وقال غيرهم: إن "فِي" قد جاءت هنا بمعنى "على". وهذا يجوز لغةً، والمراد أنهم عند سماع قول الأنبياء وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين إليهم أن يكفّوا عن مثل

هذا الحديث (فتح البيان).

أما أنا فأرى أننا نستطيع حلّ المشكلة بالنظر إلى معاني كلمة "الأيدي" التي تعني أيضًا الصنيع والإحسان والنعمة. فنظرًا إلى هذا المعنى سيكون المراد أنهم ردّوا إلى الأنبياء صنيعهم هذا قائلين: لا نريد منكم أي وعظ ولا نصح، وهكذا قابلوا تعاليم الأنبياء بالرفض والاحتقار. وعندنا أيضًا يقولون بهذا المعنى باللغة الفارسية: " عطاءِ تُو بَلْقاءِ تُو".

والجزء التالي من الآية يؤيد هذا المفهوم حيث ورد: ﴿وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

فاطِر: فطَر الشيءَ فَطْرًا: شقَّه. فطَر العجينَ: اختبزه من ساعته و لم يُخمِّره. فطَرَ الأمرَ: اخترعه وابتدأه وأنشأه. (الأقرب)

مُسَمًّى: المُسَمَّى: المعلوم المُعيَّن. (الأقرب)

سُلطان: السُّلطانُ: الحُجَّةُ؛ التسَلطُ؛ قُدرةُ المِلك. (الأقرب)

التفسير: قال ابن عباس: كنت لا أدري ما هو فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر. فقال أحدهما: أنا فطرتُها: أي أنا ابتدأتها. (الأقرب)

يبدو من هذه الرواية أن كلمة "فاطر" تشير إلى المراحل الأولى من الخلق. وقد ذكر القرآن الكريم أربع مراحل للخلق كالآتي:

المرحلة الأولى: وهي عندما لم يكن لأي شيء وجود سوى الله تعالى.

المرحلة الثانية: وهي التي خُلقت فيها المادة.

المرحلة الثالثة: وهي التي أخذت فيها هذه المادة في التفاعل والتشكّل نتيجة الاجتماع، وبدأت تنشأ فيها طاقات مختلفة، وتترتب فيها قوانين شتّى يُسمّى اكتمالها السنن الطبيعيّة.

المرحلة الرابعة: وهي التي تكرّرت فيها عملية الخلق نتيجة هذه السنن الطبيعيّة، أعني بدأت سلسلة التوالد والتناسل وشَرَعَ الإنسان يولد من إنسان وأخذت الغلال تنبت من غلال.

وبما أن كلمة الفطور تدل على خروج شيء من شيء، فلذا أرى أن كلمة (فَاطِرِ) هنا تشير إلى المرحلة الثانية للخلق.

قال الرسل لأقوامهم: إننا نعظكم لأن الله تعالى أمرنا بهذا، ولا نقدّم لكم هذا الوعظ من عند أنفسنا. ولِمَ تشُكّون في قدرته ﷻ على إنزال الوحي على البشر؟ إن ظنّكم هذا باطل، لأن الذي أتقن خلق السماوات والأرض على هذا المنوال، كيف يُتوقّع منه أن يخلق البشر ثم يتركهم سدىً دون هداية روحانية. هذا، وإنه من غير المعقول أن يخلق الله السماء والأرض الماديتين ولا يهتم بخلق السماء والأرض الروحانيتين.

ثم قال الرسل: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. ذلك أنه قد يقول الكفار بأننا لا نشكّ في قدرة الله على دعوتنا إلى الهدى، وإنما نقول إنه أسمى وأعظم من أن يدعونا نحن البشر المحتقرين، مع العلم أن هذا التفكير المريض شائع أيضًا لدى العلمانيين اليوم. فرّد الأنبياء على ظنون الكفار هذه وقالوا: لا شكّ أنه لا يليق بالعظيم أن يدعو من هم دونه لينصروه، ولكن أن يدعوهم العظيم

ليساعدهم فهذا لا يقدح في شأنه وعظمته شيئًا، بل إن هذا ما تقتضيه عظمته. إننا لا نقول بأنه تعالى يدعوكم لمصلحة له، وإنما بَعَثَنا إليكم لصالحكم، ليسدّ حاجاتكم ويغفر لكم ذنوبكم، ويهب لكم حياة جديدة حقيقية.

فردّ عليهم الكفار: لو كان الأمر كما تعتقدون لاختار الله لرسالته رجلاً عظيمًا، أما أنتم فبشر مثلنا، ولا يمكن أن يبعثكم الإله العظيم إلينا رسلاً. فلا شكّ أنكم تلفّقون هذه الأمور من عند أنفسكم لتمارسوا الحكم علينا وتصرفونا عن طاعة آبائنا إلى طاعتكم. فأْتونا بآيات ومعجزات تؤكد فضلكم علينا وتزيل مخاوفنا هذه.

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلا بِإِذْنِ اللّهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

التفسير: فأجابهم رسلهم لا جرم أننا بشرٌ مثلكم، ولكن ألا تفكرون أن كل من يختاره الله سيكون أحدًا من مخلوقاته، ولن تكون قواه وكفاءاته إلا هبة إلهية له. ولا يمكن أن يكون هذا المرسل شريكًا لله أو من غير مخلوقاته، إذ لا شريك له ولا وجود لموجود إلا من خَلْقه. وما دام الأمر هكذا فلا يليق بكم أن تعترضوا بالقول: لماذا اختار الله لرسالته بشرًا مثلنا؟ لقد اختار من شاء من عباده، ومن أنتم حتى تحدّدوا اختياره أو تسلبوا سلطة الخيار منه سبحانه وتعالى؟!.

أما مطالبتكم بأن نأتيكم ببرهان على فضلنا عليكم، فهي أمر غير معقول،

لأننا لم ندّعِ قط بأننا أفضل من غيرنا من البشر، وإنما نعلن عن كوننا بشرًا ورُسلاً فقط، بمعنى أن الله تعالى قد اختارنا ليُظهر آياته على أيدينا، وتكمن قوتنا في التوكل على نصرته هو، ولا ندّعي أبدًا بأننا قادرون على إظهار المعجزات من عند أنفسنا. بل من زعم لنفسه فضيلة ذاتية كهذه فلا يمكن أن يُعدّ مؤمنًا، بل هو كافر، وذلك وفق المبادئ التي ندعو إليها.

وَمَا لَنَا أَلا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

هَدانا: (راجِعْ شرح الكلمات للآية ٢٨ من سورة الرعد).

التفسير: وأضاف الرُسُل: إنه من المستحيل علينا، وقد رأينا مشاهد القدرة الإلهية، أن نتوهم أنه تعالى بحاجة إلى معونة منّا، بل إن رؤيتنا لقدرته هي التي دفعتنا لأن نسخّر في سبيله كل ما آتانا من مواهب وكفاءات كما آتاها غيرنا.

وفي قولهم ﴿قَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ إشارةٌ إلى أن فضل النبي على غيره ليس فضلاً شخصيًا وإنما يكمن فضله في كونه يؤكد بأعماله على حاجة البشر لسند خارجي، وبالتالي على ضرورة المعونة السماوية لهم.

كما أن كلمة (سُبُلَنَا) تكشف لنا سرًّا عظيمًا آخر، وهو أن الشريعة إنما تأمرنا بما فيه خيرنا وفلاحنا نحن، لأنها تهدينا إلى ما نحن بحاجة إليه من أجل رقينا، وليس أن الله تعالى هو بحاجة إلينا.

كما أشار الله باستخدام صيغة الجمع (سُبُل) إلى أن ما أنزلهُ تعالى من شرائع من

وقت لآخر كانت تراعي شتى الحاجات البشرية، وأنها كانت تعاليم مكتملة نظرًا إلى متطلبات تلك العصور.

ثم يزداد الرسل اعترافًا بضعفهم إذ يقولون: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ أي أننا لا ندّعي بأي قدرة وتفوُّق في أنفسنا، بل على العكس فنحن نقرّ بتفوقكم علينا من حيث الوسائل والأسباب، ونعلم أنكم سوف تصبّون علينا أنواع الأذى، ولكننا نقوم بهذا الواجب بأمر من عند الله تعالى، لذلك سوف نتحمل أذاكم بصبر وجَلَد وعزيمة، لنؤكد لكم أننا لا نريد عليكم من فضل ولا نهدف إلى مصلحة شخصية.

ثم قالوا:﴿وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي أن كلّ إنسان محتاج إلى سند يعتمد عليه، إذ لا أحد يستطيع سد حاجاته بمفرده. وما دام الأمر كذلك فلماذا نبحث عن سند عادي؟ بل سنتوكل على الله وحده، الذي تغني قدرته عن كل سند آخر.

تُعلِّمُنا هذه الآية عدة دروس منها:

الأول: إنما يليق بالمؤمن أن يكون صبورًا على الأذى كاظمًا للغيظ، ولكن مع مراعاة التمييز بين الصبر وبين عدم الغيرة. فعليه بالصبر فيما يمس بمصالحه الشخصية، ولكن عليه بإظهار الغيرة على دين الله تعالى بكل جرأة وحماس، إلا أن التعبير عن الغيرة الدينية يجب أن يتم أيضًا بطرق مشروعة.

الثاني: هناك سؤال يطرح نفسه: إن الناس في احتياج دائم إلى سند يعتمدون عليه في حياتهم، ومع ذلك لا يتوكلون على الله، لماذا؟ والجواب: ذلك لأنهم يكونون محرومين من اليقين الكامل بالله تعالى بينما يكون النبي قد اختبر الألطاف الإلهية وشاهدها، لذلك يتوكّل هو وأتباعُه على الله تعالى بكل قناعة وحماس. وهذه هي الغاية الحقيقية من بعث الأنبياء، بأن يخلقوا في قلوب الناس اليقين الكامل بالله تعالى، ويجعلوهم متوكلين عليه ﷻ.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

لَتعودُنَّ: عاد إلى كذا وله: صارَ إليه ورجعَ؛ وقيلَ: ارتدّ إليه بعدما كان أعرض عنه. والعربُ تقول: عاد عليّ من فلانٍ مكروهٌ أي صارَ منه إليّ. (الأقرب)

ملَّتنا: المِلّةُ: الشَريعةُ أو الدينُ، وقيلَ: المِلَّةُ والطريقةُ سواءٌ، وهي اسمٌ من أمليتُ الكتابَ، ثم نُقلتْ إلى أصول الشرائع باعتبار أنها يُمليها النبيّ، وقد تُطلَقُ على الباطل كـــ "الكُفرُ ملّةٌ واحدة"، ولا تُضافُ إلى الله ولا إلى آحاد الأمّة. (الأقرب)

التفسير: إن الكفار يجادلون أنبياء الله وجماعاتهم سخطًا على ادعائهم بالانتصار، ولكنهم يتمنَّوْنَ في قرارة أنفسهم: يا ليت هؤلاء يبدون بعض المرونة واللِّين في موقفهم حتى لا تُمسّ كرامتنا فننضمّ إلى صفوفهم. وقد حدث ذلك في زمن النبي ﷺ أيضًا، إذ جاء الكفار إلى عمه أبي طالب وقالوا له: لو أن محمدًا أبدى بعضَ الرفق واللِّين نحو آلهتنا فلا يذكرها بسوء، لتركنا معارضته وتصالحنا معه. ولكن النبي ﷺ ردّ على عرضهم بكل صراحة وقال: "والله، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركتُه". (السيرة لابن هشام)

وبعد سماع ردّه هذا شنّ الكفار على ذاته الشريفة وعلى أصحابه الكرام الحملةَ الشرسة التي أدت إلى الهجرة.

والحق أن كل نبي يواجه مثل هذه الأحداث. ولقد تمت الإشارة إلى مثل هذه الأماني والتهديدات من الكفار في الآية السابقة أيضًا، ولذلك ردّ عليهم الأنبياء مرة بعد أخرى بقولهم: لا ضيرَ، فاصنعوا ما شئتم، فإنّا متوكلون على ربنا، ومستعدون للصمود أمام اضطهادكم وتعذيبكم. فأدرك الكفار بذلك أن هؤلاء الرسل لا

يتهاونون أبدًا في تبليغ رسالاتهم، ولا يبدون مرونة في موقفهم، فهدّدوهم بما هدّد به المكيّون نبيَّنا الكريم حين خيَّروه: إمَّا أن ينضم إلى دينهم الوثني أو يُطرَد من أرضهم. ولم يكن الطرد عندهم مجرد نفي وإبعاد وإنما هو تهديد بالقتل أيضًا. والواقع أن قولهم هذا يعني إعلانهم عن قطع أي علاقة مع الأنبياء، وكأنهم يقولون لهم: ما دمتم لا ترضَون بتصالح مُرضٍ معقول فمن المحال أن نعيش معًا. والبلد بلدنا، ونحن الأكثرية، فإذا كنتم لا ترضَون بقرارنا هذا، فلا حقّ لكم في العيش في أرضنا.

هذا هو دأب أهل الباطل في كل زمن. فإنهم يتباهون بما عندهم من قوة ومنعة، معلنين: يجب على الفريق الآخر إما أن يقتنع بما نرضى به من عقائد أو يخرجوا من بلدنا. وهكذا تمامًا يفعل معنا نحن

المسلمين الأحمديين قطاعٌ من المسلمين، بحيث يؤذوننا ويعذبوننا ويهددوننا صراحةً قائلين: إما أن تتوبوا عن الأحمدية أو تخرجوا من بلدنا.

ومن سخرية القدر أن بعض الكتّاب الهندوس يوجهون هذا التهديد نفسَه إلى مسلمي الهند. فيتّحد هؤلاء الجهلة ليوسعوا شُقة الخلافات بين مختلف الطوائف بدون مبرر، إذ يُقحمون الدين في السياسة عبثًا.

واعلمْ أنه تعالى لم يقل هنا "لَنُهلِكنّهم" بل قال: ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾، وفي هذا إشارة إلى أنه كان المقدر لبعضهم أن يؤمنوا فينجوا من الهلاك، لذلك قال إننا سوف نهلك منهم فقط من يبقى مصرًّا على ظلمه.

كما أشار الله بقوله ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ إلى أن الكفار بادعائهم بأن البلد بلدهم وسوف يُخرجون منها من لا يرضى بقرارهم. قد صاروا بأنفسهم ظالمين في الواقع، لأن الأرض لله وليست ملكًا لهم، فلا بدّ أن نهلك هؤلاء الظالمين وفق قرارهم هم.

أما قوله تعالى ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ فيمكن تفسيره كالآتي:

أولاً: إن كل نبي يكون منذ الصغر محميًا معصومًا بعناية الله عن الشرك ولا يكون

من ملة المشركين، فالمراد من قولهم هو: ليس أمامك أي خيار سوى أن تنضم إلى ملتنا وتصير مشركًا مثلنا. ذلك إذا اعتبرنا العودة بمعنى الصيرورة.

ثانيًا: لما كان قول الكفار هذا موجهًا إلى أتباع النبي أيضًا، وكانوا قبل إيمانهم به من ضمن المشركين فلذا قال لهم الكفار: لا مناص لكم من الرجوع إلى ملتنا وملتكم السابقة. ذلك إذا أخذنا العودة بمعنى الرجوع.

ثالثًا: لا شك أن النبي يكون منذ الصغر بريئًا من العقائد الفاسدة والأعمال الوثنية، ولكنه يُعتبر عُرفًا من الملة المشركة كونه قد وُلد بينهم، ولذلك خاطبوه وأتباعه: لا بدّ لكم من العودة إلى ملتنا التي كنتم فيها من قبل.

وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

مقامي: المقامُ: الإقامةُ وموضعُها وزمانها؛ المنـــزلةُ. (الأقرب)

وعيد: أصلُهُ: وعيدي. قالوا في الخيرِ: وعدَه وعدًا وعِدَةً، وفي الشرّ: وعدَه وعيدًا. والخُلفُ في الوعدِ عند العرب كذبٌ وفي الوعيدِ كرمٌ. والوعيدُ: التهديدُ. (الأقرب)

التفسير: هنا تساؤل: لماذا استخدم الله تعالى في هذه الآية والتي قبلها صيغ الجمع للمتكلم، مع أن الذي يُهلك الكفار أو يُبقي ويُسكن أهل الحق في الأرض هو ربّ واحد؟ الجواب: هذا أسلوب للتعبير عن عظيم قدرة الله وسلطانه وجبروته، إذ إن الجماعة تكون أكثر قوة وقدرة من فرد واحد. وقد اتبع الله هذا الأسلوب دائمًا عندما قصد لفت الأنظار إلى جبروته وكبريائه، أما إذا أراد إظهار غناه فإنه استخدم

لنفسه صيغة المفرد.

لقد قال بعض الصوفية: إنه تعالى يأتي بصيغ الجمع عند الحديث عن الأمور التي ينجزها بواسطة الملائكة، ويستخدم صيغ المفرد عند الحديث عما ينجزه بخالص أمره.

عندما هدّد الكفار أهلَ الإيمان بطردهم من أرضهم وملكهم، ردّ الله على تهديدهم هذا: سوف نهلكهم لنُسكنَ رسلَنا والمؤمنين في أراضيهم وأملاكهم.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.. أي أن وعد النجاح والغلبة إنّما يتحقق في حق من يهاب عظمتي ويخاف إنذاري. وكأن إنجاز الوعد الإلهي في حق جماعة الأنبياء مشروط بشرطين: بأن تبقى عظمة الله مستولية على قلوبهم دائمًا، وأن لا يبرحوا خائفين حذرين مما حذّرهم الله منه. وهذا يؤكد خطأ الذين ينتظرون تحقق الوعود الإلهية في صالحهم بمجرد كونهم أفرادًا من أمة النبي.

وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٦﴾

شرح الكلمات:

استفتَحوا: استَفتحَ البابَ: فتَحه. استَفتحَ الشيءَ بكذا: ابتدأه به. استفتحَ فلانٌ: طلبَ الفتحَ واستنصرَ، ومنه: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ﴾ أي إنْ طلبتم الظَفَرَ. وكذا: هو يستفتحُ عليَّ بفلان. (الأقرب)

خابَ: خابَ يخيبُ خيْبةً: لم يَظفر بما طلبَ؛ كفَر؛ انقطعَ أملُه. خابَ سَعيُه: لم ينجح. (الأقرب)

جبّار: الجبّارُ: من صفات الله تعالى أي الذي يُصلح ما فسد ويسُدُّ حاجات المحتاجين بكثرة. والجبارُ: كلُّ عاتٍ متمرّد؛ الذي يقتلُ على الغضب. (الأقرب)

عنيد: عَنَد عن الطريقِ والقصدِ: مالَ وعدَل. والعنيدُ: المخالفُ للحق الذي يردُّه

وهو يعرفه. (الأقرب)

التفسير: اعلم أن ضمير الغائب في كلمة ﴿اسْتَفْتَحُوا﴾ يمكن أن يكون عائدًا على المؤمنين أو على الكفار أيضا، ذلك بحسب قواعد اللغة العربية وبحسب السياق أيضا. فما دام الكفار قد هدّدوا المؤمنين بالطرد من أرضهم كان لا بدّ من أن يدعوَ الأنبياءُ ربهم أن يحميهم من شرور الكفار ويكتب لهم النصر والغلبة عليهم.

ولو سأل سائل: لقد سبق أن وعد الله المؤمنين بالفتح في قوله: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ﴾، فما الداعي لأن يبتهلوا إليه للغلبة؟ فالجواب: إن الله تعالى عندما يَعِد المؤمنَ بشيء فعليه أن يزداد دعاءً وابتهالاً لتحقُّقه، لأنه إذا حُرم من تلك النعمة رغم الوعد الإلهي فهذا دليل على تقصير فادح منه وعلى شقائه الشديد.

وضرورة الدعاء طلبًا لأمرٍ ما رغم وَعْد الله تعالى بإنجازه ظاهرٌ بيّن بدليل قول المؤمنين في القرآن الكريم:﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ (آل عمران: ١٩٥). فعلى المؤمن ألاّ يتكاسلَ في السعي ولا يتوانى في الدعاء ظنًّا منه أن الله تعالى ما دام قد وعدني بهذا فلا بدّ من أن يتحقق، بل عليه أن يشد أزره أكثر للدعاء والعمل والتدبير لما وُعد به، كيلا يؤدي تقصيره إلى الإساءة لما وعد الله تعالى. والحق أن الأنبياء ما زالوا يبتهلون إلى الله تعالى ويتخذون شتّى التدابير لإنجاز ما وُعدوا به، وليس في هذا أي دليل على ضعف الإيمان فيهم وإنما هو دليل على قوتهم الإيمانية واستسلامهم لله كلّية. لقد وُعد النبي الكريم ﷺ بفتح مكة قبل أن يهاجر منها، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ (القصص: ٨٦)، إلا أنه ﷺ لم يزل متوسلاً إلى ربه أن يكون فتحها وتطهيرها على يده، متخذًا شتّى الوسائل والتدابير حتى إنه خاضَ من أجل ذلك نحو عشرين معركةً. فلو كانت مسألة اتخاذ التدابير لأمرٍ قد وعَدَ الله به مسألةً غير جائزة لجلس النبي عاطلاً دون أن يحرّك ساكنًا في سبيل فتح مكة، ولكنه فعل النقيض، ممَّا يؤكّد أن هذا ظنُّ الجهلة الذين ليس لهم نصيب في فهم حقائق الدين.

أما إذا أرجعنا ضمير الغائب في ﴿وَاسْتَفْتَحُواْ﴾ إلى الكفار، فالمراد من الآية أن الكفار لا يزالون يتمنون الغلبة والانتصار ويتخذون لذلك شتّى الوسائل والحيل، ولكن هؤلاء الحمقى لا يعتبرون بأمثلة الماضي، حيث خاب أعداء الرسل في كل مرة، بل يحلمون بالغلبة على من اصطفاه الله واختاره.

مِن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاء صَدِيدٍ ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

مِن ورائه: الوراءُ أكثرُ ما يكون ذلك في المواقيت من الأيام والليالي، لأن الوقت يأتي بعد مضيّ الإنسان فيكون وراءه، وإن أدركه الإنسانُ كان قُدّامه. فهو وراء الإنسان على تقدير لحوقه بالإنسان، وهو بين يدي الإنسان على تقدير لحوق الإنسان به، فلذلك جاز الوجهان. وتكون بمعنى سِوى نحو: ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ﴾ أي سوى ذلك. (الأقرب)

صديد: الصديدُ: ماءُ الجرحِ الرقيقُ المختلطُ بالدم قبل أن تغلظ المِدّة. وقيل: هو القيحُ المختلط بالدم. وقيلَ: الحميمُ أُغلِي حتى خَثَر. (الأقرب)

التفسير: المراد من قوله تعالى ﴿مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ﴾ أن هذا الشخص مضطر لمواجهتها لأنها تحاصره وتلاحقه.

أما قوله تعالى ﴿وَيُسْقَى مِن مَّاء صَدِيدٍ﴾ فقد يُراد بالصديد هنا الماء المغلي فعلاً. وكما أن الناس يتداوون في الدنيا بالماء المغلي فقد يكون في جهنم أيضًا ما يشابه الماء المغلي يُعالَجون به من أسقامهم الروحانية.

وقد يكون هذا مجازًا، والمراد أنهم رغم تيسُّر الوسائل لن يقدروا على استغلالها، مثل الماء المغلي الذي لا يستطيع الظمآن شربه لإطفاء ظمئه، مع أنه ماء دون شك.

أما إذا كان ﴿صَدِيدٍ﴾ بمعنى القيح فالمراد أن معاصيهم كانت نتيجة شهواتهم الدّنية الفاسدة التي هي بمثابة القيح المتكون في جروحهم الباطنية، لأنها نِتاجٌ لفساد القلب، ونفس هذه الأهواء الفاسدة سوف تتمثل لهم في الآخرة قيحًا يتجرعونه ولا يكادون يُسيغونه.

والقيح يشير أيضًا إلى علاجهم، إذ نجد أن أفضل طرق العلاج في هذه الأيام هي: "فيكسين" و"سبيرم" و"بيكتروفيج"، حيث يصنعون الدواء من جراثيم المرض نفسه، فقد تكون الآية إشارة إلى العلاج بالمثل، والمراد أن العُصاة سوف يعالجون من أمراضهم الروحانية بعلاج متكون من مادة أُخذت من شرورهم وآثامهم.

أو المراد أن نجاساتهم وأدرانهم نفسها سوف توضع أمامهم فيكرهونها وينفرون من التطلع إليها فيما بعد ، وهذا كما يفعل أطباء النفس في العصر الحديث لمعالجة المجرمين كي يُبعدوا المجرمين عن الاندفاع والتقرب نحو الإجرام .

يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

يتجرّعه: تجرّعَ الماءَ: ابتلعه شيئًا بعد شيء، ومنه في القرآن ﴿يُسْقَى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ﴾ أي يتكلّفُ جَرعَه. وتجرّعَ الغيظَ: كظمَه. (الأقرب)

يُسيغُه: ساغَ الشرابُ في الحلق: هَنَأَ وسلِسَ وسهُلَ مَدخلُه. وأساغَ الطعامَ إساغةً: سهّلَ مَدخله في الحلق وساغ له دخولُه فيه. (الأقرب)

غليظ: الغليظُ: ذو الغلاظة؛ خِلافُ الليِّنِ والسلِس. وأمرٌ غليظٌ: شديدٌ صعبٌ.

وعذابٌ غليظٌ: شديدُ الألم. (الأقرب)

التفسير: أما قوله تعالى ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾، فكما أن المؤمنين سيتلقون السلام في الجنة من كل باب (الرعد:٢٤-٢٥) كذلك سيواجه الكفار الموت من كل طرف بمعنى أن أنواع الآثام التي وقعوا فيها سوف تتمثل لهم في أشباح الموت.

ولكنه تعالى قد وضّح أيضًا أنهم لن يموتوا بذلك، لأن العذاب يستهدف إصلاحهم، ولذلك سوف يتلقون في آخر المطاف السلامَ الذي قد خُلقوا من أجله، ولن يموتوا إلا الموتة الأولى التي سبق أن ذاقوها في الدنيا.

هناك أمر لطيف يجب ملاحظته هنا، فقد استخدم كلمة "باب" في وصف الجنة، حيث قال: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلامٌ عَلَيْكُم﴾(الرعد: ٢٤-٢٥)، بينما استخدم كلمة "مَكان" في وصف الجحيم. ذلك أن السلام يأتي من الخارج أي من عند الله وبفضله، وأما الهلاك فيترتب على أعمال الإنسان نفسه. ولذلك قال إن السلام سوف يترل على أهل الجنة من كل باب، وإن الهلاك سوف ينبع من كل شبر من مكان إقامتهم.

أما قوله تعالى ﴿وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ فقد يكون المراد منه أنهم سوف يُلقَون في أنواع العذاب الأخرى، كالحِرمان من قرب الله تعالى، والندامة، والحسرة وغيرها. وقد يعني أن عذابهم لن يزول بسرعة، بل سيلازمهم لزمن طويل.

مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴿١٩﴾

شرح الكلمات:

عاصفٍ: عَصَفَ الزَّرعَ يعصُفُ عَصفًا: جزَّه قبل أن يُدرِك. عَصَفت الريحُ تعصِف

عَصفًا وعصوفًا: اشتدّت فهي عاصفٌ وعاصفةٌ. عَصَف فلانٌ عيالَه: كَسَبَ لهم. وعصَفت الحربُ بالقوم: ذهبتْ بهم وأهلكتهم. وعصَفَ الدهرُ بهم إذا أبادهم. وعَصَفت الناقةُ براكبها: أسرعت السيرَ به. وعَصَفَ الشيءُ: مال. عَصَف الرجلُ: أسرعَ. العاصِفُ: المائلُ من كل شيء. ويومٌ عاصف أي تعصِفُ فيه الريح، وهو فاعلٌ بمعنى مفعول فيه مثل قولهم: ليلٌ نائم، وجمعُ العاصف العواصف. (الأقرب)

التفسير: قوله تعالى ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ لا يعني أن القوم كانوا مُنكرين وجودَ البارئ تعالى، وإنما المراد أنهم كفروا بنعم ربهم أو أنكروا وجود هذه القوى والصفات في الله تعالى.

هناك كثير من الناس الذين يؤمنون بالله تعالى، ولكنهم لا يوقنون بتصرفه وسلطانه على شؤون هذا الكون، ومثالهم في هذه الأيام العلمانيون عندنا، الذين أَثَّرت فيهم الثقافة الغربية سلبيًا، فربما لا يوجد بين المئة منهم شخص واحد يؤمن بأن الله هو المتصرف المدبّر لهذا الكون، وإن كان هؤلاء يؤمنون بوجود الله تعالى. ولذلك تجدهم يعملون لأنفسهم، أو لكسب الصيت من أهل الدنيا، لا ابتغاءً لمرضاة الله أو خوفًا من عقابه. وعن هؤلاء وأمثالهم يقول الله جلّ شأنه: إن أعمالهم لا تنفعهم منفعة روحانية، بل إنها عديمة الجدوى من المنظور الروحاني، شأنها شأن الرماد الذي تهبّ عليه الرياح والعواصف، فلا تُبقي له من أثر، كذلك سوف يبطل الله أعمالهم في الآخرة. ذلك أن ما يقوم به المرء من أجل الدنيا فقط يجب أن ينحصر نفعه فيها فحسب. ولا ظلم ولا إجحاف في ذلك، لأن الجزاء الحقيقي لأي عمل إنما هو ذلك الذي يترتب عليه وفق النواميس الطبيعية، ويستوي في هذا الجزاء المؤمنُ والكافر. فمثلاً من تَفَقّدَ الفقراءَ وساعدهم نال الجزاء في الدنيا؛ إذ يشكرونه ويقدمون له خدماتهم بشتّى الطرق، بل ويَفدونه بالأرواح أحيانًا. ومن كان صادق الحديث يثق به الناس، فينتفع بثقتهم بشتّى الصور. إذن فما دام المرء ينال الجزاء الطبيعي على عمله في الدنيا فلا يبقى له أي حق على الله أن يجزيه عليه في الآخرة أيضًا.

ولكن الذي يعمل الخير ابتغاءَ مرضاة الله فكأنه يقوم بعملين: عمل ظاهري وعمل آخر باطني هو الإخلاص والطاعة لله تعالى، ولذلك يستحق عليه جزاءً مزدوجًا، أي النتيجة الطبيعية لعمله، إلى جانب جزاء إضافي آخر عند الله، وهو ما يسمى بالثواب في الآخرة. والبديهي أن هذا الجزاء الإضافي لا يستحقه إلا الذي يكون عمله الظاهري مصحوبًا بعمل باطني هو الرغبة في الحصول على رضا الربّ. أما غيره فليس له من الجزاء إلا ما ناله في الدنيا.

وهناك معنىً آخر للآية وهو أن الجهود التي يبذلها أعداء الحق ضدّ دين الله تعالى سوف تبوء بالفشل، لأن الله تعالى هو المسبب للأسباب وخالقها، فكيف يدع مكائدهم تنجح ضدّ دينه ﷻ.

غير أنه يجب أن نتذكر أن الله تعالى قد يهيئ لأعداء دينه أيضًا فُرصًا للفرحة الكاذبة إذ يحققون أحيانًا انتصاراتٍ مؤقتةً عابرة، ذلك لكي يتجلى الله بقدرته وجلاله بعد ذلك على صورة أكثر وضوحًا، ولكي يتيح لأصحاب الطبائع السليمة فرصة التوبة والإيمان.

وأما قوله تعالى ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ فالمراد منه أنه ليس هناك هلاك أشدّ بشاعةً وأكبر مقتًا من أن تضيع جهود المرء كلية دون أي نتائج مُرضية، بل تنقلب عليه مساعيه وبالاً وعذابًا.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

يُذْهبكم: الذهابُ: المُضيُّ، وهو كنايةٌ عن الموت أيضًا، قال الله تعالى:﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ . (المفردات)

التفسير: أي أن الله تعالى لم يخلق الكون عبثًا، فكيف يمكن أن يضع الله زمام الدنيا في يد هؤلاء الكفار الذين يأتون أعمالاً تبطل غاية خَلقهم؟ فيجب أن يتذكروا أنهم في حالة خطر لأنهم يخالفون المشيئة الإلهية. ولا يظنّنّ هؤلاء أنه لا أحد يقدر على أن ينتزع منهم ما يملكون أو يقوم مقامهم، كلا، بل إن الله قادر تمامًا على أن يُهلكهم ويأتي مكانهم بقوم آخرين. والمراد من "الآخرين" هم جماعة أتباع الأنبياء عليهم السلام. ولم يقصد الله بهذا التأكيد على قدرته فقط، بل التأكيد أيضًا على عزمه الأكيد على تجهيز قوم يأخذون مكان هؤلاء المكذبين.

وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

عزيز: يُقال: عزَّ عليّ كذا: صَعُب قال الله تعالى: ﴿عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ﴾ أي صَعُبَ. (الأقرب)

التفسير: يا لغرابة أهل الدنيا! فعندما تُصاب أُمَّة بالانحطاط تقول: إن نهوضنا مستحيل الآن، وعندما تحقق الرقي تقول: إن انحطاطنا محال الآن. مع أنهم يرون نهوضَ الأمم المنهارة وانحطاط الشعوب المتقدمة في كلّ عصر. فكم من أمة نهض بها الله بعد سقوطها، وكم من شعب وضعه الله وألقاه في الحضيض بعد رقيٍّ وازدهار.

وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

مُغنون: أغنى عنه: أجزأه. ما يُغني عنك هذا أي ما يُجدي عنك (الأقرب)

مَحيص: حاصَ عنه يحيص: عدَل وحادَ. المحيصُ: المحيدُ؛ المهرَبُ. (الأقرب)

التفسير: لقد استخدم الله تعالى في الآية صيغ الماضي بمعنى المستقبل، والدليل على ذلك أنه تعالى يتحدث هنا عن العذاب الذي لم يكن قد حلّ بهم. واستخدام الفعل الماضي مكان المضارع أسلوب قرآني للتأكيد، والمعنى أن هذا الأمر واقع لا محالة وكأنه قد وقع في الماضي. وهناك نظائر كثيرة في القرآن الكريم لهذا الاستخدام. وفي لغتنا الأردية أيضًا يقال لمن ينتظر قادمًا فيملّ انتظاره: لا تقلق، فقد جاء. فالآية تعني أن الله تعالى حين يقرر هلاك قوم فلا بد أن يضطروا للبروز والمثول أمامه بمعنى أن عيوبهم ونقائصَهم التي تكون خفيّة من قبل تنكشف للناس شيئًا فشيئا.

لقد ذكر الله تعالى هنا سرًا عظيمًا لهلاك الأمم يجب أن نتذكره دائمًا. فإنه تعالى يذكّرنا أن الأمم لا تهلك بسبب وجود العيوب فيهم بقدر ما يهلكون نتيجة انكشاف عيوبهم على العالم. فإنهم بالرغم من وجود النقائص فيهم يستمرون في إحراز التقدم والرقي ما دامت هذه النقائص خفيّة مستترة، وتهابهم الأمم وترتعب منهم. ولكن عندما يهتك الله سترَهم ويكشف عيوبهم للآخرين يأخذون في الانحطاط باستمرار، رغم محاولاتهم المضنية للنهوض. وهذا يعني أن الصِّيت أهم وأكثر نفعًا للإنسان من عمله أيضًا. وإلى هذا المعنى تشير الآية وتقول: إن الله تعالى عندما يريد إهلاكهم يفضحهم ويكشف عيوبهم للدنيا، وإلا فإنه تعالى عليم بكلّ صغيرة وكبيرة منهم في

كل حين.

أما قوله تعالى ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ﴾ فمعناه أنه عندما سيأخذ هؤلاء الكفار في التردي والهلاك سيقول الضعفاء منهم لكبرائهم: تعالوا لحمايتنا من الهلاك فإننا كنا خاضعين لكم نتبع أوامرَكم، فيقول لهم الكبراء: لا نجد نحن أيضًا من الهلاك مخلصًا، فكل ما نبذله من جهود يبوء بالفشل، فكيف ننصركم ونحن الخاسرون، فما عليكم إلا أن تلتزموا الصبر.

وهنا أيضًا يبيّن الله تعالى سرًّا آخر في هلاك الأمم. إذ أن الأقوام التي لم يحن وقت هلاكها بعد لا تزال – رغم تعرضها للانهيار – ساعيةً سعيًا حثيثًا للخروج من المآزق التي هي فيها. ولكن الأمة التي كُتب عليها الهلاك تركن إلى القنوط واليأس صابرة مستسلمة لما هي فيه. مع أن هذا ليس من الصبر في شيء، وإنما الصبر أن يواجه الإنسان هذه الشدائد بجَلَد وعزيمة محاولاً التخلص منها، لا أن يرضى بها مطمئنًا.

كما أن الآية تشير إلى أن الناس يُحضّون بعضهم بعضًا على ارتكاب الجرائم والمعاصي قائلين لهم: افعل كذا ولا تبالِ، فنحن نتحمل المسئولية. ولكن عندما يُنزل الله بهم العذاب فلا أحد يتصدى لنصرتهم إذ لا أحد يقدر على ذلك. ونفس الحال بالنسبة للجرائم الدنيوية. فكبراؤهم يحثونهم على القتل وغيره من المعاصي ويَعِدونهم بأنهم سوف ينقذونهم من العقاب، وعندما يُلقى القبض عليهم فلا أحد من هؤلاء الكبراء يتقدم لنصرتهم وإنقاذهم.

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إلا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا

أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

شرح الكلمات:

الحق: (راجع شرح الكلمات للآية ١٥ من سورة الرعد)

أخلَفْتُكم: أخلَفَه ما وعده: قال شيئًا و لم يفعله. أخلَفَ فلانًا: وجدَ موعِدَه خِلْفًا. أخلَفَ الغيثُ: أطمَعَ في النزول ثم نكَص. أخلفَ الدواءُ فلانًا: أضعَفَه (الأقرب). فالمراد من ﴿أخلَفتكم﴾: ١- أنني أخلفتكم الوعد، ٢- أنني أضللتكم بالوعود المعسولة الكاذبة.

مُصرِخ: أصرَخَ فلانًا: أغاثه وأعانه، تقول: استصرَخَني فأصرخته أي استغاث بي فأغثتُه، وقيل: الهمزةُ للسلب أي فأزلتُ صُراخَه (الأقرب). فالمراد من قوله ﴿مَا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ﴾: ١- لا أقدر على نجدتكم كما لا تقدرون على مساعدتي، ٢- لا أستطيع إزالة صراخكم كما لا تستطيعون إزالة صراخي.

التفسير: إن الشيطان أو أظلاله من البشر يعلنون براءتهم ممن يتخذونه أداةً طيّعة لارتكاب الإثم، إذ يقولون له: لم نكرهك على ارتكابه، وإنما كنت بنفسك شريرًا لذلك رضيت بما أشرنا به عليك. لو كان فيك خير لما رَضِيت بقولنا. متى أكرهناك على ارتكاب المعصية؟

وهذا حق لا شك فيه. فإن الشيطان أو أظلاله من البشر لا يملكون في الواقع أي خِيار على الإنسان، وإنما هم وسيلة لكشف عيوبه فقط، مثلما تكون الملائكة سببًا لظهور كفاءاته الحسنة. والحق أن أهواء النفس البشرية هي التي تضله وتنحرف به، ولا دخل للشيطان في ضلاله، إلا أنه يمتحن الإنسان مشيرًا عليه باختيار السيئة. شأنه شأن المعلم الذي يضع أمام الطالب أسئلة صعبة وقت الامتحان. فعند فشل الطالب في

الامتحان لا يقول أحد بأن المعلم هو الذي تسبب في فشل الطالب وإنما يقولون: إنه فشل بسبب ضعفه العلمي، أما المعلم فقد كشف عليه الواقع. كذلك حال الملائكة والشيطان. فالملائكة يُظهرون للإنسان مستواه في الخيرات، بينما يكشف عليه الشيطان مستواه في السيئات، ولا يعني ذلك أن الملائكة تجعل الإنسان بارًّا، أو أن الشيطان يجعله فاسدًا.

والمراد من قوله ﴿فَلا تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم﴾ أنكم رأيتم وعود الله تتحقق دائمًا ومع ذلك لم تكترثوا لها و لم ترضوا بها، وتقبلتم ما وعدتكم من وعود معسولة رغم انكشاف زيفها عليكم، فما ذنبي في ذلك.

وقوله ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾، أوليس غريبًا أن نجد الشيطان يدّعي الإيمان بتوحيد الله تعالى، إذ يذكّرهم قائلاً: أنتم بأنفسكم اتخذتموني شريكًا مع الله بينما كنت أنكر ذلك.

والواقع أنه على حق، لأن الشيطان الذي يقوم باختبار الناس وكشف عيوبهم إنما يقوم بواجبه الذي فرضه الله عليه. ولا شكّ أن جبروت الله وعظمته تكون جليّة أمام عينيه، فكيف يمكن إذًا أن يقع في الشرك؟ وإنما يتولد الشرك في الإنسان عندما يقبل الوساوس الشيطانية ويحوِّلها إلى معصية.

هناك سمٌّ اسمه "الزرنيخ" يستخدمه الأطباء كترياق ناجع في بعض الأمراض، ولكن إذا أساء أحد استخدامه وتناول كمية أكبر من اللازم صار هذا الترياق سمًّا قاتلاً. هذا هو مثال الشيطان، فإن تأثيراته كالزرنيخ أو هي بمثابة اختبار المعلم للطالب، فإذا تصرّف تجاهها تصرفًا سليمًا نجا وفاز وإلا فشل وهلك.

وقد يتساءل هنا أحد قائلاً: فلماذا يلقي الله بالشيطان في الجحيم إذن؟ والجواب: لقد سجّل القرآن قول الشيطان لله تعالى ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ (الأعراف:١٣). فالذي خُلق من النار لن يتعذب بدخوله فيها، فمثلاً لو ألقيتَ جمرةً ملتهبة في الموقد فلن يحدث لها شيء. ولذلك نجد الصوفية يميلون إلى الاعتقاد بأن أظلال الشيطان من

البشر سوف يعذَّبون، ولكن الشيطان نفسه لن يعذَّب، لأنه إذ يختبر الناس فإنه يؤدي واجبَه الذي فرضه الله عليه.

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ ﴿٢٤﴾

شرح الكلمات:

إذْن: الإذنُ: الإجازةُ؛ الإرادةُ؛ العلمُ. (الأقرب)

تحيّتهم: التّحيةُ: السلامُ؛ البقاءُ؛ السلامةُ من الآفات. والتحيّةُ من الله: الإكرامُ والإحسانُ. (الأقرب)

التفسير: لقد قال بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ إن الإنسان لن يدخل الجنة إلا بفضل الله ورحمته لا كحق ثابت له. كما ورد في الحديث الشريف أيضًا: "عن عائشة عن النبي ﷺ قال: سدِّدوا وقارِبوا وأبشِروا، فإنه لا يُـــدخِل أحدًا الجنةَ عملُه. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة." (البخاري، الرقاق)

الواقع أن أعضاءنا وملكاتنا كلها عطاء من الله الرحمن، وهكذا تصبح أعمالنا أيضًا هبة من الله، لأننا إنما نؤديها بفضل هذه القوى الموهوبة من عنده سبحانه وتعالى. فما يؤتينا الله من جزاء على أعمالنا إنما هو عطاء وفضل منه، وليس حقًا لنا في الواقع.

وأرى أن للآية معنىً آخر أيضًا وهو أن المؤمن لا يريد بأعماله الجنة، بل ينشد بها رضوان الله. فلو أقام في الجنة فإنما لأنه تعالى قد أمره بهذا. وهذا المعنى يتأكد من حديث شريف قال فيه النبي ﷺ: إن العاملين ثلاثة، فمنهم من يعمل الحسنات طمعًا

في الجنة، ومنهم من يعمل خوفًا من النار، ومنهم من يعمل لوجه الله ومرضاته.

فلا شك أن الصنف الأخير منه سوف يظفر بالجنة أيضًا، ولكن كهدية لا كهدف منشود.

قوله تعالى ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ يعني أنهم سوف يتبادلون هناك فيما بينهم تحية السلام؛ أو أنه لن يصيب هناك أحدًا شرٌ من أحد، بل سيعيشون في سلام تام؛ أو أن أفضل تحية يتلقونها من الملائكة أو من الله في الجنة هي السلام. بمعنى أن الملائكة يثيرون ما فيهم من ملكات دقيقة خفية لتقوى الله، كما أن الله ﷻ سوف يخصهم بأفضال ونعم خاصة.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء ﴿٢٥﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

شرح الكلمات:

ضَرَبَ: ضرَبه بيده: أصابه وصدمه بها. ضرَبه بالسَّوط: جَلَدَه. (الأقرب)

مَثَلاً: المَثَلُ: الشِّبهُ والنظير؛ الصِّفةُ؛ الحُجّةُ، يُقال: أقام له مثلاً أي حُجَّةً؛ الحديثُ؛ القولُ السائرُ؛ العبرةُ؛ الآيةُ (الأقرب). ضرَبَ له مثلاً: وصفه وقاله وبيّنه. فالمراد من قوله تعالى ﴿ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً﴾ أنه تعالى قد بيّن مثال الكلمتين الطيبة والخبيثة أيما تبيان، ليعرف كل إنسان حقيقتهما.

طيِّبةً: طابَ الشيءُ يطيبُ طابًا وطِيبًا وطِيبةً وتَطيابًا: لذَّ وزكا وحسُن وحلا وجلّ

وجاد. طابت الأرضُ: أَكْلأَتْ. طابت به نفسي: انبسطتْ وانشرحتْ. طابَ العيشُ لفلانٍ: فارقتْه المَكارهُ. وطابَت نَفسي عليه: وافَقَها. والطِّيبُ: ذو الطِّيبة. (الأقرب)

التفسير: هذه الآية تُعَدُّ من تلك الآيات الصعاب التي فسّرها سيدنا المهدي والمسيح الموعود عليه السلام تفسيرًا رائعًا وبالتالي دلّنا على الطريق الذي نستطيع به حل الآيات الصعبة الأخرى. ولكن قبل الخوض في تفسير هذه الآية أود توضيح إعرابها.

لقد ذكر النحاة في لفظة (كلمةً) وجهين للإعراب، فقال أبو البقاء: إن (كَلِمَةً) بدلٌ من (مَثَلاً)، والمراد: ضرب الله مثلاً أي كلمةً طيبةً. بينما يرى ابن عطيّة والزمخشري أن (مثلاً) و(كلمةً) مفعولان لـــ(ضَرَبَ) أي: ضرب الله كلمةً طيبةً مثلاً بمعنى جعلها مثلاً. و(كشجرةٍ طيبة) خبر لمبتدأ محذوف، بمعنى: هي كشجرة طيبة.

والآن أتوجه إلى تفسير هذه الآية فأقول: لقد بيّن الله هنا حقيقة الكلمة الطيبة أعني حقيقة وحيه الصافي الحي المصون من تلاعب البشر وعبثهم.

والداعي لضرب هذا المثال هو أن الله تعالى قد أشار في الآيات السالفة إلى أن الذين يتبعون خطوات الشيطان يكون مصيرهم الهلاك، وأما الذين يؤمنون ويعملون الصالحات فيرثون جناتِ النعيم. فكان طبيعيًا أن يهتم الإنسان بسلوك الطريق الذي ينجّيه من العذاب ويجعله وارثًا لنعم الله وجناته. بيد أن هناك أمرًا يهمّه ويُقلقه، وهو أن هذه السورة تذكر أيضًا أن الله تعالى قد بعث كثيرًا من الأنبياء في مختلف الأزمان، مما يعني أنه تعالى قد نسخ شرائع بعض الرسل بشرائع جديدة أنزلها على غيرهم، فكيف يعرف الإنسان: أيٌّ من هذه الشرائع لا تزال تمثل وحيًا إلهيًا صافيًا صالحًا للعمل به، وأيها ليست كذلك، أو أي من التعاليم والمبادئ السائدة هو من وحي الله تعالى، وأيها من افتراء البشر واختلاقهم؟ فيجب أن يكون هناك مقياس للتمييز بين الصالح وبين الرديء. وقد بيّن الله هذا المقياس هنا ليسهل على الإنسان معرفة كلام الله الذي لا يزال صافيًا طيبًا صالحًا للعمل. فيقول الله عز وجل: إن مثال الوحي الإلهي الذي لا يزال صافيًا مصونًا من عبث البشر هو ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا

فِي السَّمَاء، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ .

لقد ذكر هنا خمس مواصفات لهذا الكلام وهي:

١) أن يكون طيبًا، أي حسنًا جميلاً في ظاهره.

٢) أن يكون أصله ثابتًا.

٣) أن يكون فرعه في السماء.

٤) أن يؤتي ثماره في كل زمان.

٥) أن يؤتي ثماره بإذن الله تعالى.

فإذا توفرت هذه المزايا الخمس في كتاب سماوي فإنه منهج كامل للناس في ذلك الزمان وصالح للعمل به. أما إذا انعدمت هذه المواصفات في سِفْر من الأسفار أو في كلام يُنسب إلى الله ﷻ فإنه لا يعدو أن يكون أحد الاثنين؛ فإما أنه مما قد تم نسخه وإلغاؤه بيد الله تعالى، أو أنه ليس من عنده ﷻ بل هو من اختلاق البشر.

والآن أتناول كل هذه المزايا الخمس بالشرح والتفصيل.

الميزة الأولى: (طيبة). ومعنى الطيّب: الحسن المنظر؛ المصون من العيب والنقص؛ ذو الطيب؛ اللذيذ؛ النقي الصافي؛ الحلو؛ العالي الجودة؛ العظيم؛ الموافق.

فالوحي الصالح للعمل هو ما يكون (أولاً) كالشجرة الطيبة مصونًا من العيوب والنقائص، بمعنى أنه ليس فيه ما يتنافى مع روحانية الإنسان أو مروءته أو مشاعره وعواطفه الطبيعية. (ثانيًا): أن يكون هذا الكلام حسن الديباجة ذا طلاوة وروعة تأخذ بمجامع القلوب. (ثالثًا): أن يجد العامل به متعة ولذة وسرورًا. (رابعًا): أن يكون حلوًا عذبًا (خامسًا): أن يكون عالي الجودة. و(سادسًا) أن يفوق كل كلام آخر في مزاياه.

الميزة الثانية: (أصلها ثابت) أي قوي راسخ. وإن لثبات أصول الشجرة في الأرض عدة معانٍ منها:

١) إنها شجرة حية طرية تمتص غذاءها من الأرض باستمرار. كذلك حال

الوحي الحي فإنه يتلقى غذاءً ودعمًا من الله باستمرار، أما الوحي الذي تم نسخه فيفقد السعة والشمولية وينضب معين معارفه، فلا يعود قادرًا على تلبية الحاجات المتجددة للبشر. ولكن الوحي الحي الثابت يظلّ يسد كل حاجة من حاجات الفطرة البشرية. فما من قضية يواجهها الناس في حياتهم إلا ويجدون حلّها في ذلك الوحي على الفور، ويجدون فيه معارف جديدة، كشجرة تمتص غذاءها من الأرض متى دعت إليه الحاجة. مما لا شك فيه أن هذه المعارف تكون مكنونة فيه، ولكن ظهورها عند الحاجة إليها، إنما يتوقف على فضل الله المتجدد باستمرار. فكأن هذا الكلام لا يزال يتلقى من الله تعالى غذاءً ودعمًا من وقت لآخر.

٢) ورسوخ أصول الشجرة إشارة إلى صلابة جذعها ومتانتها. بمعنى أنها تقف صامدةً ولا تخضع للهزات والصدمات. وهذه أيضًا إحدى مزايا الوحي الحق، فإنه يبقى صامدًا في وجه المطاعن والاعتراضات، ومهما قسا عليه الأعداء بالنقد فإنهم لا يقدرون عليه، بل إنه يبقى ثابتًا شامخًا رغم عدائهم اللئيم.

٣) ورسوخ الأصول يشير إلى ثبوت الشجرة أيضًا فلا تتزعزع من مكانها. فالمراد من قوله تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أن أصول الكلمة الطيبة ومبادئها صلبة بحيث إنها لا تتغير ولا تتبدل وإنْ تغيّر الزمن، بل تبقى تعاليمها الحقة ثابتة على ما هي عليه. أما إذا مست الحاجة إلى تغيير الوحي فاعلموا أنه قد فقد الطلاوة والحيويَّة وصار كشجرة قد جفّت أغصانها واجتُثَّتْ من أصولها.

٤) ورسوخ أصل الشجرة إشارة أيضًا إلى طول عمرها، لأن الأشجار التي تضرب جذورها عميقًا في الأرض تعمَّر طويلاً. وهذه أيضًا من مزايا الكلام الإلهي فإنه يخدم الإنسانية لمدة طويلة، وليس أنه يترل اليوم ويُنسخ غدًا. والمراد من كلام الله هنا: التعاليم الأساسية الجوهرية التي هي كالأصول، وإلا فمن الممكن أن يلغي الله بعض الأمور الفرعية من الوحي بلاءً واختبارًا للناس، بيد أن المبادئ الجوهرية لا تتغير أبدًا. خذوا مثلاً التوراة، فقد نسخها الله بالقرآن الكريم ولكن بعد أن

خدمت الإنسانيةَ لمدة ألفي سنة. لقد أرسل الله أنبياء كثيرين في هذه الفترة، ولكنهم ما جاءوا لنسخ التوراة وإنما لتطبيقها.

٥) وكما أن جذور الشجرة الطيّبة تشق طريقها في الأرض كذلك يجب أن يأخذ كلام الله الحي طريقه في أرض القلوب المؤمنة، فتنعكس تأثيراته الطيبة في سلوكهم وأعمالهم. فيجب أن تكون هناك جماعة من المؤمنين العاملين بالكلام الإلهي حتى يُكتب له الازدهار وتُعرف نتائجه وتأثيراته. فإن قلوب جماعة المؤمنين هي بمثابة الأرض لكلام الله تعالى، فيترك هذا الكلام تأثيرًا عميقًا في القلوب المؤمنة حتى يتأصّل فيها؛ أي أنهم يعملون بالأحكام الواردة في كلام الله ويكشفون للعالم محاسنه وكمالاته.

٦) أن يكون مصدر غذاء هذا الكلام واحدًا، بمعنى أنه لا يتغذى كالحيوانات من هنا وهناك، بل يمتص -كالشجرة- غذاءه من منبع واحد هو الله تعالى. وفي هذا إشارة إلى أن ما يخترعه البشر من مبادئ وتعاليم تكون مستقاة من مصادر شتى، فيكون بعضها مقتطفًا من الفلسفة، وبعضها من الطبيعيات، وبعضها من التقاليد والعادات، وبعضها من القوانين السائدة حينذاك، ولذلك تجدون في هذه التعاليم المصطنعة بأيدي البشر شتّى أنواع التعارض. ولكن منبع كلام الله تعالى واحد وجذوره عميقةٌ؛ بمعنى أن أحكامه وتعاليمه لا تكون متعارضة فيما بينها، كما تتناول كلّ قضيّة إنسانية ببحث تفصيلي عميق. ولا يكون هذا الكلام بحاجة إلى مساعدة من البشر للدفاع عن مبادئه، بل إن مورد غذائه وبقائه -أي الأدلة والبراهين- يكون من أصل واحد هو الله سبحانه وتعالى، فهو الذي يتولى الدفاع عنه.

الميزة الثالثة: ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾، وقد أشار القرآن بذلك إلى المواصفات التالية لكلام الله الصافي الحيّ:

١) إن الإنسان إذا عمل بهذا التعليم تمكن من الوصول إلى الله تعالى. ذلك أن الذي

يتسلق شجرة وصلت فروعها إلى السماء فإنه لابدّ أن يصل إلى السماء، التي يُراد بها في لغة الروحانيات القربُ من الله تعالى.

٢) إن ذلك الكلام الإلهي يبين أحكام الشرع بكل تفاصيله. ذلك أن وصول الشجرة إلى السماء تشير إلى كثرة الفروع أيضًا. فالمراد أنه ما من حاجة بشرية إلا ويسدها هذا التعليم، وما من قضية روحانية أو أخلاقية إلا ويبحثها بالتفصيل. وكأن هذه الشجرة الروحانية الباسقة تغطي بأغصانها رقعة السماء الروحانية.

٣) إن تعاليمه مبنية على أسس مكارم الأخلاق. ذلك أن ارتفاع أغصان الشجرة الروحانية يشير إلى أن هذا الوحي لا يحتوي على أخلاق سطحية ومبادئ عادية، بل يدعو إلى المبادئ العليا والأخلاق السامية.

٤) إنه نافع للناس كافة على اختلاف طبائعهم وأمزجتهم، بدليل أن الشجرة الباسقة الوارفة الظلال تظل كثيرًا من الناس. فالجملة إشارة إلى أن هذا الكلام قادر على استقطاب الناس من كافة المجالات والطبقات، ونافع لهم على حد سواء.

الميزة الرابعة: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ﴾، والمراد من ذلك:

١) أن من علامات الوحي الطاهر الحي ظهورُ شخصيات روحانية عظيمة من بين العاملين به بين حين وآخر، وكأن هذه الشخصيات ثمارٌ لهذه التعاليم. بمعنى أن هؤلاء يكونون نموذجًا مثاليًا لتأثيرات هذا الوحي.

٢) أنه يضمن لمن يعمل به النجاة الأبدية من الآثام. ذلك أن قوله تعالى ﴿تؤتي أكلها كل حين﴾ كما يعني ظهور الشخصيات الروحانية على الدوام، فإنه ينص كذلك على ضرورة أن يتزوَّد الإنسان من ثمارها دائمًا. وهذا الغذاء المستمر من تلك التعاليم الطيبة لن يتيسر لأحد ما لم تتيسر له الطهارة الأبدية التي لا يتخللها فتور ولا تقصير.

الميزة الخامسة: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي أن هذه الشجرة الطيبة تعطي الثمار بإذن ربها لا بحسب النواميس الطبيعية العادية. وهنا قد تميزت الشجرة الطيبة الروحانية عن الشجرة العادية، لأن الأشجار الطبيعية تثمر وفق النواميس الطبيعية، ولكن الشجرة

الطيبة تثمر بإذن إلهي خاص. وفي هذا إشارة إلى أن نتائج كلام الله تعالى لا تكون طبيعية فحسب، بل تكون له نتائج شرعية أو روحانية أيضًا. وعلى سبيل المثال، إذا كان الإنسان صادق الحديث فلا شك أنه سيجني ثمرًا طبيعيًا لعادته المباركة هذه، إذ يزداد ثقةً واحترامًا لدى القوم، ولكنه سيجني ثمرًا آخر شرعيًا إذ يرث أفضالاً وبركات خاصة من عند الله تعالى. أو إذا كان يؤدي الصلاة، فثمرها الطبيعي هو أنه يُدرك المصلي أهمية الطاعة والنظام لإحراز المصالح القومية، إلا أنه يجني لصلاته ثمرًا آخر شرعيًا وهو أنه سيزداد قربًا من الله ويحظى برؤيته ﷻ .

هذه هي العلامات التي ذكرها القرآن للشجرة الطيبة، والحق أنها تحدّد هُوية الوحي الإلهي الصافي الحي بحيث لا يبقى هناك أية صعوبة في التمييز بين الكلام الحق وبين الكلام الباطل. وعندما ننظر إلى القرآن الكريم نجده متحليًّا بكلٍّ من هذه المواصفات بشكل مثير للإعجاب، حتى إنه لن يسع الأغبياء أيضًا إلا أن يعترفوا بكون القرآن زاخرًا بمحاسن منقطعة النظير، وبطاقات روحانية خارقة بحيث يستحيل أن يباريه أي مصدر آخر، سواء أكانت الكتب السماوية السابقة أو كلام البشر من الفلاسفة أو غيرهم.

ميزات الشجرة القرآنية الطيبة:

إنني لا أستطيع أن أتناول هنا هذه الأمور كلها تفصيليًا إلا أنني سوف أقدم لكم أمثلةً لتعرفوا منها كيف أن هذه المواصفات تنطبق على القرآن الكريم بصورة تبهر العيون.

أولاً: قوله تعالى﴿طيبةً﴾ وهي كلمة تشير إلى كون الشيء بريئًا من كلّ عيب أو ضرر ظاهرًا وباطنًا، ونجد هذه الميزة متوفرة في القرآن الكريم بصورة مميزة كالآتي:

أ- فبرغم أنه قد تطرق إلى أمور ومسائل هي غاية في الحساسية من حَيض ونِفاس وعلاقات زوجية وعواطف مرهفة يتبادلها الزوجان، إلا أنه قد أدّى هذه المعاني بكلمات مهذبة وتعابير فاضلة وبأسلوب جميل لطيف للغاية بحيث لا يثقل بيانه حتى على أصحاب الطبائع المرهفة. لقد استخدم لبيان هذه المعاني لغة راقية شريفة تخلو

تمامًا من كلمات ثقيلة وتعابير ركيكة وأساليب معقدة وأخيلةٍ يجري وراءها الشعراء عبثًا. بل إنه مهما كان الموضوع صعبًا فإن القرآن قد عبَّر عنه بكلام واضح سهل لا يثقل على الآذان ولا يشتت الأفكار. وإن تعاليم القرآن في هذه الأمور بسيطة وجميلة بحيث لا يشعر العامل به أي خطرٍ من ضرر أو خسارة.

ب- ثم إن قوله تعالى (طيبة) يشير أيضًا إلى كون الشيء جميلاً في مظهره، ونجد القرآن الكريم يمتاز عن سائر الكتب السماوية بهذه المزيّة أيضًا. إن حسنه الظاهري - أي الفصاحة والبلاغة - جليّ وواضح لدرجة أنه لا يستطيع أي كتاب آخر الصمود أمامه، سواء من ناحية اختيار الكلمات الفاضلة أو تركيب الجمل المحكمة أو التعابير الراقية أو تسلسل العبارة أو سمو الموضوع أو سعة المعاني، بل ستجده فريدًا في كل هذه المزايا والمحاسن وكثير غيرها.

لقد استُخدمت في القرآن تلك الكلمات العربية نفسها التي وردت في مئات الآلاف من الكتب الأخرى، ولكن هيهات هيهات أن يبلغ أي منها شَأْوَ القرآن أو يشقّ غبارَه.

كان العرب مشهورين بتفوقهم على الشعوب الأخرى في رقة خيالهم، وسمو أدبهم، وكثرة المفردات في لغتهم. وقد بلغ شغفهم بالأدب والفصاحة درجةً بحيث كانوا لا يقيمون لما يُبهر العالم من غلبة ومال وعزةٍ وزنًا ولا قيمةً إزاء الأدب. كانوا يعظمون شعراءهم وكأنهم رسل، ويوقّرون خطباءهم وكأنهم آلهة. ولكن هؤلاء العرب البلغاء الذين ازدهر بينهم الأدب والأدباء على هذا النحو المحيّر، عندما سمعوا القرآن أُخذوا بالدهشة والانبهار، وأُصيبت ألسنتهم الطليقة بالعِيّ والحَصَر. ذلك على الرغم من أن القرآن قد نزل في نفس الفترة التي بلغ فيها الأدب العربي أوج كماله وذروة مجده، إذ كان بعضٌ من أدبائهم الكبار الذين كانوا فرسان الفصاحة والبلاغة في تاريخ الأدب العربي كله قد خلَوا قبل نزول القرآن بزمن قصير، وبعضهم كانوا لا يزالون على قيد الحياة. فهؤلاء البلغاء عندما سمعوا القرآن وقفوا حياله مبهورين حتى سمّوه "سحرًا".

أليست الكلمة التي كذبوا بها القرآن نفسها تشكل دليلاً على إجماع بلغاء العرب على أن هذا القرآن لهو أسمى من أن يصطنعه البشر؟

لقد أبدع العقل العربي أجمل المقالات الأدبية وأروعها، ولكنه لم يستطع إزاء القرآن إلا الاعتراف بعجزه عن الإتيان بكلام جميل مثله. فتبارك الله أحسن الخالقين.

ثم إن مواضيع القرآن أيضًا تتسم بهذه السِّمة، سواء من ناحية سمو المعاني أو سعة المعارف، أو شمولية المواضيع، أو تنويرها للعقل، أو تأثيرها في النفوس ونفوذها إلى أعماق القلوب. فعندما يتحدث القرآن عن الرفق واللين يكاد يذيب القلوب المتحجرة الفرعونية، وحين يدعو إلى الشجاعة والبسالة تكاد القلوب "الإسرائيلية" تغمر بالغيرة الإيمانية الإبراهمية، وإذا حثّ على العفو والمحبة يكاد النبيُّ عيسى عليه السلام يصاب بالحيرة والانبهار، وإذا أكد على ضرورة العقوبة تكاد روح موسى عليه السلام تأتي لتسلم على صاحب القرآن ﷺ.

وبالإجمال، فإن الإنسان يستطيع - بدون الخوض في سعة المضامين القرآنية - أن يدرك بكل سهولة أن القرآن مُحيطٌ لا شاطئ له، وجنةٌ لا حدَّ لثمارها. لقد بهر العالم بحسنه وجماله لدرجة أن الناس كانوا ولا يزالون يقولون: إن هذا الكلام ليس من محمد، وإنما أعانه عليه قوم آخرون! أليس زعمهم هذا اعترافًا منهم بجمال القرآن وفضله يا تُرى؟!

ج- وقوله تعالى ﴿طَيِّبَةً﴾ يشير إلى معنى المتعة واللذة أيضًا. والقرآن الكريم يفوق الكتب الأخرى أيضًا لذة ومتعة. ترون أتباع كل ملة وطائفة اليوم محرومين من الطمأنينة الحقيقية رغم عملهم بتعاليمها، ولكن لن تروا من يعمل بالقرآن بصدق في هذا الضيق والاضطراب، بل إنه يجد في العمل به متعة ويزداد إليه شوقًا. وخلاصة القول: إن هناك لذة عجيبة فيه، مَن تذوقها مرة حقَّ التذوق لا يستطيع أن يفارقه أبدًا.

د- وقوله تعالى ﴿طَيِّبَةً﴾ يشير إلى معنى الزكاة والنمو والطهارة أيضًا. والقرآن

الكريم فريد في هذه الميزة أيضًا. خذوا مثلاً الطهارة الظاهرة، فإن القرآن هو الوحيد من بين سائر الديانات الذي يعدّ النظافة من الإيمان، بينما كانت النظافة الظاهرة والطهارة الباطنة قبل نزوله تُعتبران ضِدَّين يستحيل اجتماعهما. فكان الرهبان المسيحيون يتفاخرون بما يعيشون فيه من أوساخ وأدران ظاهرة، كما كان الكهان الهندوس يتباهون بأسمالهم المتسخة القذرة. فجاء القرآن وأوضح مبادئ الطهارة أيما إيضاح. لقد لفت أنظار الناس بكل براعة إلى أن الجسم الطاهر السليم يساعد على طهارة الروح وسلامتها، وأن استخدام الطيبات التي خلقها الله لعباده لا يدنِّس الروح بل يطهِّرها. فإذا رمى بها المقربون عند الله عرضَ الحائط، فكيف يعرف غيرهم قيمة هذه النعم.

بيد أن القرآن صرّح أن استخدام الطيبات أيضًا يجب أن يتم بطريق طيب سليم، إذ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ (المؤمنون:٥٢). وقد أشار بذلك إلى وجود صلةٍ بين الجسم والروح يتطلّب بيانُها مجلدات ومجلدات.

ه- وكلمة (طيّبة) تُشير إلى معنى الحلاوة أيضًا. والقرآن الكريم ليس لذيذًا فحسب، بل هو حلوٌ أيضًا. مع العلم أن اللّذة تعني رغبة النفس البشرية في شيء، أما الحلاوة فتشير إلى انسجامٍ وتلاؤم بين النفس وبين هذا الشيء. فالمراد أن تعاليم القرآن حلوة خالية من أية حدّة أو شدَّة، ولذلك يستسيغها حتى أصحاب الطبائع الحساسة المرهفة ويجدونها منسجمةً مع طبائعهم، فيقبلونها وينتفعون بها.

و- وكلمة (طيّبة) تُشير إلى العُلُوّ والسُّمُوّ. وبالفعل، فإن معارف القرآن ومطالبه سامية للغاية بحيث يستحيل أن يباريه فيها أي كتاب آخر. إنه يتحدث عن صفات البارئ تعالى ويدلّل على حكم الله على الكون ويؤكد سلطانه على كلّ موجود بأسلوب رائع أخّاذ ترقص الروح لبيانه، ويُخيّل للإنسان وكأنه قد بدأ يحلّق في السماوات العُلى، متحررًا من كلّ العلائق الأرضيّة الدُّنيويّة. هل من كتاب يقدر على أن ينافس القرآن في هذا الشأن؟ وهل من كلام يستطيع أن يباريه في هذا الحُسن

والجمال؟! كلا ثم كلا.

ز- كما تُشير كلمة ﴿طيّبة﴾ إلى كون الشيء عالي الجودة. وإن المزايا المذكورة أعلاه لتكفي لإقناع أي امرئٍ شريف بكون القرآن الكريم ممتازًا على كلّ كلام آخر، سواء أكان من الأسفار السالفة أو من صُنع البشر، حتى يبدو وكأن القرآن من عالم، وما سواه من عالم آخر.

ثانيًا: قوله تعالى ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾. لقد سبق أن ذكرنا لهذه الجملة ستة معانٍ أي ست مزايا، والحق أنها كلها متوفرة في القرآن الكريم على أكمل وجه، وإليكم بيانها:

١) إن القرآن الكريم كتاب حي كالشجرة الحية. وكما أن الشجرة المتأصّلة الجذور تمتص غذاءها من الأرض باستمرار فتبقى مخضرّة نضرة، كذلك فإن للقرآن الكريم حيوية ونضارة، ولا ينضب معين معارفه أبدًا. فمنذ ثلاثةَ عشَرَ قرنًا والمفسرون يكتبون تفسيره، وقد بلغ تفسير بعضهم مائة مجلد، ومع ذلك ما نفدت كلمات الله ولم تنتهِ مفاهيم القرآن الكريم، بل لا يزال يزوّدنا القرآن بمطالب جديدة باستمرار، وكأن هناك أحدًا من وراء الغيب يفيض بهذه الكنوز علينا دون توقف. فكلما نواجه مسألة ونتدبرها في آيات القرآن الكريم فإنه يلبي حاجتنا ويكشف علينا معانيَ جديدةً. وقد أعلن الله ﷻ بنفسه عن هذه الميزة في القرآن الكريم حيث قال:﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٧). فالوحي الإلهي الصالح للعمل يجب أن يبقى حيًّا نضرًا كالشجرة المخضرّة، أي أن يتلقى هذا الوحي الدعمَ من منبعه سبحانه وتعالى. فكما أن الشجرة تبقى كما هي ولكنها تمتص رحيق الحياة من الأرض باستمرار، كذلك يبقى الوحي كما هو ولكن مفاهيمه المكنونة لا تزال تنكشف باستمرار وفق مقتضى كل عصر وزمان. بيد أن الله هو الذي يتولى كشف هذه المعارف على من يشاء من عباده، كما أشار إلى ذلك بقوله تعالى ﴿لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ﴾(الواقعة: ٨٠).

٢) والعلامة الثانية للشجرة التي (أَصْلُهَا ثَابِتٌ) هي أنها لا تخضع للصدمات بل تتحمل

وطأتها في شموخ وصمود. كذلك لا يمكن أن يُسمَّى كلامًا إلهيًا حقًّا إلا الكلام الذي يصمد في وجه المطاعن ويرد عنه الهجمات بنجاح. وهذه أيضًا من خصوصيات القرآن الكريم؛ فإن مبادئه متينة وواضحة للغاية بحيث يستحيل أن يتصور أحد أن القرآن سيخضع أمام المطاعن. إن القرآن لا يسمح لأحد بإحداث أي تغيير لفظي أو تحريف معنوي فيه، إذ إن كلماته نفسها تهبّ للدفاع حفاظًا عليه نصًّا وروحًا. فمن حاول التغيير في أي تعليم قرآني فإنه يشوهه ويخربه ولن ينتفع منه شيئًا. شأنه شأن البناء الذي إذا نزعت منه بعض اللَبِن خرَّ على الأرض. كذلك فإنه من المحال من الناحية الروحية أن يختار أحد بعض القرآن ويترك بعضه الآخر وهو يريد أن ينتفع من بركاته حقّ المنفعة، فإما أن يتّبعه كلَّه أو يتركَه كلَّه. تجدون مسلمي اليوم يخسرون الرهان ويتخلفون، بينما يحرز غيرهم كسب السبق ويتقدمون، والسبب أنهم يعملون ببعض القرآن ولا يهتمون بالبعض الآخر. والقرآن الكريم لا يقبل مثل هذا الضيم والخطأ، فمن حاول الضغط عليه خسِر بنفسه خسرانًا مبينا. إذا كان هذا المسلم لا يريد العمل به فهو حرّ في أن يتركه ويختار كتابًا آخر، بمعنى أن هذا الإنسان إذا كان يريد رقيًا ماديًا بترع أصل شجرة القرآن من قلبه فليفعل، فلربما يحقق رقيًا ماديًا، ولكنه لن يستطيع إحراز الرقي الحقيقي بإحداث تغيير في القرآن الكريم نفسه.

كذلك يعني قوله تعالى ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أن القرآن لا يتأثر بتقلب الزمان. فمهما اخترع الإنسان من علوم وحقق مِن تقدمٍ فإنه لا يستطيع الهجوم على القرآن الكريم ولا يقدر على انتقاده.

٣) والعلامة الثالثة للشجرة التي ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ هي أنها لا تتزعزع من مكانها رغم العواصف الهوجاء. كذلك فإن أُصول القرآن الكريم متينة وثابتة لأنها لا تتغير أبدًا. وإن تعاليمه مبنية على أصل واحد لا تعارضَ فيها، بعكس ما فعلوه في الإنجيل، إذ حاولوا تأسيس المسيحية الحالية على مبادئ متعارضة كعقيدة التوحيد مع الثالوث، والإيمان بالله مع عقيدة الكفارة. كذلك فعل الآريون الهندوس إذ يقولون من ناحية:

إن الله خالق وكريم، ومن ناحية أخرى يقولون بأنه سبحانه وتعالى لا يقدر على خلق المادة ولا الأرواح، مع أنهما مبدءان متعارضان متناقضان تمامًا. ولكن تعاليم القرآن كلّها مبنية على أصلٍ واحد دائمًا. خذوا مثلاً قضية التوحيد، فكل ما يذكره القرآن الكريم من تفاصيل دقيقة في هذا الصدد يدور حول التوحيد نفسه وتؤكد على التوحيد فقط لا غير. وإذا كان القرآن يصف الله بكونه (الرحمن الرحيم) تجد تعاليمه التفصيلية كلها أيضًا تؤكد على هاتين الصفتين، ولا يمكن أن تجده يعلم التوحيد بينما تكون تعاليمه التفصيلية مشوبة بالشرك، أو أن يصف الله بكونه (الرحمن الرحيم) ثم يعود فيذكر في التفاصيل ما يدل على عدم رحمته.

٤) والعلامة الرابعة للشجرة التي (أَصْلُهَا ثَابِتٌ) هي أنها تكون طويلة العمر، لأنه كلما كانت عميقة الجذور عاشت فترة أطول. لقد مضى على نزول القرآن الكريم ثلاثةَ عشرَ قرنًا، ومع ذلك لا تزال أحكامه وتعاليمه صالحة للعمل، وسيبقى هكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولكن الكتب التي لا تكون من مصدر سماوي لا تتسم بهذه الميزة، بل إنها تُكتب اليوم وبعد فترة يعارضها مؤلفوها أنفسهم، فلا يعمل بها أحد. ولكن العمل بالقرآن جارٍ وسارٍ منذ نزوله، بل إن المسلمين الذين كانوا قد هجروه منخدعين ببريق الحضارة الغربية قد بدأوا اليوم يعودون إلى تعاليم القرآن الصلبة مرّةً أُخرى، بعد أن ذاقوا الأَمَرَّين بإتباع تلك الحضارة الفاسدة. وهناك عشرات القضايا التي اضطر العالم أخيرًا للاعتراف بفضل تعاليم القرآن بشأنها، كتحريم لحم الخنزير والخمر، وأخذ الحيطة والحزم في اختلاط الجنسين، وتعدد الزوجات، والطلاق والإرث وغيرها. وهكذا اعترف الأعداء بطول عمر الشجرة القرآنية التي نرى أن عمرها سيمتد إلى يوم القيامة.

٥) والعلامة الخامسة للشجرة التي ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أنها تنبت في أرض خِصبة لا في تربة عادية، لأن جذورها لن تمتد بعيدًا إلا في تربة خِصبة للغاية. كذلك حال الوحي الإلهي الحق، فإنه لا يمكن أن يُثبت كفاءته إلا إذا تيسَّرَ له قوم تكون أرضُ قلوبهم

جاهزةً لاستقبال شجرة التعليم الإلهي. وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله ﴿الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر:١١).. أي أن الإيمان بمثابة الشجرة التي لا يمكن أن تزدهر إلا في تربة العمل الصالح. فمهما كان الوحي السماوي ساميًا نافعًا فإن محاسنه لن تنكشف للعالم ما لم يعمل به قوم من الأقوام. لذلك من الضروري أن تتأصل شجرة التعليم السماوي في قلوب صالحة لتزدهر فيها هذه الشجرة السماوية الطيبة، وإلا فلا يمكن أن يُكتب لأي وحي سماوي الازدهار والبقاء.

ولقد تهيأت هذه الوسيلة للقرآن الكريم على أكمل صورة. إذ تيسرت له عند النزول جماعةٌ من المخلصين الذين زرعوا الشجرة القرآنية في قلوبهم وسقوها بدمائهم. ولا يزال القرآن يتحلى بهذه الميزة إلى يومنا هذا. مما لا شك فيه أن الناس في الماضي عملوا بصدقٍ بالفيدا والتوراة والإنجيل وغيرها من الأسفار السماوية السابقة، ولكن قلّما نجد اليوم من يعمل بها. غير أن العاملين بالقرآن وُجدوا في كل زمان ومكان، وكلما قلّ عددهم خلق الله آخرين مثلهم، وهكذا لم تزل جذور الشجرة القرآنية تزداد عمقًا في الأرض، وما انفك حسنه وجماله متألقًا متجليًا في العالم. أما الكتب الأخرى فإذا كانت لا تزال تتحلى بنصيب من الحسن والجمال فمَثَلُ جمالها كمن يأخذ بذرة في يده ويبدأ في وصفها قائلاً: هذه بذرةُ شجرةٍ تحتوي على مزايا كذا ومواصفات كذا، بينما تكون هذه الشجرة قد جفّت وامّحت ولم يبقَ لها من أثر. أما القرآن فيمكن التدليل على جماله للناس بتقديم شجرته الحية الخضراء الموجودة في كل حين. وشتّان بين أن تقدّر حسن الشيء بالقياس والتخمين وبين أن تشاهده بعينك، إذ ليس الخبر كالمعاينة.

٦) والعلامة السادسة للشجرة التي ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ هي أن مصدر غذائها واحد، فهي لا تمتص غذائها كالحيوان من هنا وهناك. لا شك أن الأشجار الصغيرة الضعيفة أيضًا تأخذ غذاءها من مصدر واحد إلا أنني أعقد المقارنة هنا بالذات بين الشجرة والحيوان فقط.. أعني بين كلام الله وبين كلام البشر. فإن الأسفار السماوية الأخرى مهما

كانت قاصرة عن مجاراة القرآن في كماله وجماله، إلا أنها تشارك القرآن في هذه الميزة.. بمعنى أن مصدرها واحد وهو الله تعالى، ولكن كلام البشر يخلو من هذه الميزة كليةً. إن تعاليم القرآن كلها من عند الله ﷻ، ولا دخل للإنسان فيها بتاتًا. لقد أنزل الله القرآن على قلب رجل واحد في وقت واحد، على عكس الكتب البشرية الجيدة، فهي نتاج تجارب الناس وأفكار الفلاسفة على مر التاريخ الإنساني، وتنعكس فيها تيارات الزمن. ولكن القرآن على النقيض منها، فإنه يعارض معظم التيارات والميول التي كانت سائدة في زمن نزوله، وإنه يشق له طريقًا جديدًا مستقلاً. مما يعني أن القرآن يأخذ غذاءه من مكان واحد كالشجرة. ولكن مثال الكتب البشرية كالحيوان الذي يتغذى من هنا وهناك، لأن أساس هذه الكتب هو الاقتباس والاستفادة من هذا وذاك وكذلك التجسسُ والتدبرُ، إذ قد يكون مؤلف الكتاب شخصًا واحدًا ولكن المعلومات التي ذكرها فيه تكون مستقاةً من شتى المصادر، وتكون معرفته حصيلة تجارب الآلاف من الناس، إلا الذين يتخذون القرآن الكريم أساسًا لمؤلفاتهم، فكتبهم تكون انعكاسًا للقرآن الكريم ولا تكون منفصلة عنه.

ثالثًا: والميزة الثالثة للشجرة الطيبة هي ﴿فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾. ولقد سبق أن ذكرنا قبل قليل سبعَةَ معانٍ لارتفاع غصون الشجرة، وكلها تنطبق على القرآن الكريم بأسلوب لم يسبق له نظير. وإليكم بيان ذلك:

١) تشير كلمة ﴿فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ إلى أن من تسلق هذه الشجرة وصل إلى السماء. وهذه الخصوصية متوفرة في القرآن بشكل لا لَبْسَ فيه، بل لا يقدر أي كتاب آخر على منافسة القرآن في هذا المجال، إذ لا أحد من هذه الكتب يعلن -كالقرآن- بأنه يوصل العامل به إلى الله تعالى، فيحظى بقربه سبحانه، ويُشاهد الأمور السماوية بأم عينه. وبالفعل لم يزل بين العاملين بتعاليم القرآن حقًّا في كل عصر أناس أعلنوا للعالم أنهم تمكنوا بإتباع القرآن من الرقي الروحاني حتى وصلوا إلى الله تعالى وورثوا أفضاله الخاصة.

٢) كما تبين كلمة ﴿فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ أن الكلام الإلهي الصافي يعلّم الأخلاق السامية للغاية، لأن ارتفاع الشجرة إشارة إلى علو التعاليم وسمو الأخلاق. والقرآن متّسم بهذه الميزة أيضًا بشكل رائع كامل، فإنه يعلم مكارم الأخلاق. وقد تدرّج القرآن في تعليم الأخلاق بَدْءًا من الخلق الأدنى إلى الأعلى، كأغصان الشجرة تمامًا التي ترتفع شيئًا فشيئًا. وهذه الميزة لا نجدها في أيٍّ من الأسفار السماوية الأخرى. فبعض ما ورد فيها تعليم رديءٌ جدًا وكأنه غصن ساقط على الأرض، وبعضها عالٍ جدًا، ولكن دون أن يكون له علاقة بأصله، وإنما مثله كمثل غصن تربطه بخيطٍ وترفعه. لا شكّ أن هذا الغصن سيبدو في الظاهر مرتفعًا، ولكن لا يستطيع أحد أن يتشبث به لأنه لا قرار له. ولكن تعاليم القرآن الأخلاقية فريدة، فهي كشجرة تبدأ أغصانها من الأرض كي يستطيع الضعفاء خُلقًا أن يتعلقوا بها طلبًا للنجاة، أما السابقون منهم فسُلَّم الارتقاء أمامهم منصوب إلى أعلى السماء.

وهناك بعض المعترضين الذين يعترضون على هذه الميزة القرآنية جهلاً منهم، فيقولون مثلاً بأن القرآن يعلّم الانتقام من المعتدي أحيانًا وهذا ليس بخُلق سامٍ؟ ولكن هؤلاء لا يفكّرون أن صاحب الأخلاق الرديئة لا يمكن إصلاحه إلا بما يناسب حالته. فليس كل واحد يصلُح بالعفو، بل إن البعض يصلحون بالعفو عنهم وبعضهم لا يرتدعون عن العدوان إلا بالعقاب. لذلك يعلّم القرآن أن نصلحهم بما يناسبهم وإلا فلن ينجوا من شرورهم. ثم هناك من لا يعرفون إلا العدل فقط.. يؤتون الناس شيئًا ليأخذوا منهم مقابلاً، ولا يعرفون الإحسان إلى الآخرين، كما هناك من يعرفون الإحسان ولكن لا يعرفون أن يؤتوا الناسَ كإيتائهم لذوي القربى كأنه حقّ لهم، ولا يعتبروا عملهم هذا إحسانًا ومِنةً على الآخرين. وكل ديانة لا تراعي في تعليمها اختلاف الطبائع البشرية هذا فإنها إما أن تنفّر الناس من الأخلاق الفاضلة كليةً، أو تكون سببًا في حرمان قطاع كبير من القوم من الإصلاح والنجاة.

٣) كما تشير كلمة ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ إلى كثرة فروع هذه الشجرة، لأنها إذا

كانت فروعها في السماء ومنتشرة فيها فلا بد أن تكون كثيرة أيضًا. مع العلم أنه تعالى لم يقل "وفرعها إلى السماء" بل قال ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ مما يدل على ارتفاع الأغصان وكثرتها معًا.

والقرآن الكريم فريد في هذه الخصوصية أيضًا. فإن تعاليمه تحتوي على معارف ومطالب وحِكمٍ بشكل محيّر للعقل الإنساني. إن القرآن كتاب مختصر جدًّا حتى إنه أقل حجمًا من الإنجيل أيضًا، ولكنه قد جمع بين دفّتيه من المفاهيم والمعارف ما يستحيل العثور عليه حتى في كتب هي أضخم من القرآن آلاف المرات. لقد تحدّث عن شتى القضايا والمسائل التي تهم الإنسان كالعبادات والمعاملات والأخلاق والتمدن والسياسة والاقتصاد والإلهيات والقضاء والتصوف وعلم المعاد وعلم الكلام وغيرها، وقد ذكرها بشكل كامل مفصّل مقرون بفلسفتها بحيث لا تبقى بنا أية حاجة لأي كتاب آخر (راجع أيضًا "فلسفة تعاليم الإسلام" و "مرآة كمالات الإسلام" لسيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام وكذلك كتابي "الأحمدية أي الإسلام الصحيح").

٤) ومن خصوصيات الشجرة التي ﴿فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ أنها تكون وارفة الظلال. فشجرة الوحي الصافي الحي هي تلك التي تظل بظلها خَلقًا كثيرًا. بمعنى أنها تجلب السكينة لكل البشر على اختلاف طبائعهم وأمزجتهم.

وهذه الصفة أيضًا متوفرة في القرآن بصورة كاملة، فإنه يراعي ضرورات الطبائع البشرية على اختلاف ميولها وقدراتها ودون القضاء على أية عاطفة طبيعية. فبينما نجد الأديان الأخرى قد اعتبرت هذه العواطف الطبيعية والرغبات الفطرية إثمًا وحاولت القضاءَ عليها.. نجد القرآن الكريم يعلن أن هذه العواطف البشرية وسائل لتكميل الإنسانية، فلا يقضي عليها بل يحث على حسن استخدامها فقط، ويقول: شأنها شأن الحصان الذي يجر العجلة. فمن أراد السير في هذه العجلة فعليه بترويض الحصان على جرّها، لا أن يذبح الحصان أو يطلق سراحه كليةً. وهذا ما فعله القرآن الكريم، فإنه يقوم بتعديل ما في الإنسان من عواطف طبيعية ويروّضها بحكمةٍ لتجلب له الراحة

والاطمئنان. إنه لا يقول لصاحب الطبع اللين أن يتخلى عن طبعه كليةً، كما لا يأمر صاحب الطبع الحاد أن يتخلى عن حدته تمامًا، وإنما يأمر كُلاً منهما أن يستخدم ميله الطبيعي هذا في حدود ملائمة وفي محله وبمقتضى الحال. إن القرآن لا ينهى الناس عن الأكل ولا اللبس ولا الزواج ولا كسب المال ولا بناء البيت، وإنما يأمرهم أن يراعوا الاعتدال ولا يتجاوزوا الحد المناسب. ومن أجل ذلك نجد الإسلام قادرًا على إصلاح كل النفوس البشرية على اختلاف ميولها ورغباتها، فما من أحد إلا وتستطيع شجرة القرآن أن تهيِّئ له الظل وتجلب له الراحة والطمأنينة.

رابعًا: والعلامة الرابعة للكلمة الطيبة أنها ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾، وهذا يعني:

أ- أن من صفات الوحي الإلهي الطيب أنه يؤتي ثمارًا عالية الجودة في كل عصر دون انقطاع. بمعنى أنه لا يزال يوجد بين العاملين به أناس يمكن اعتبارهم كنموذج مثالي لتأثيراته. مع العلم أنه تعالى قد قال هنا ﴿تُؤتِي أُكُلَها﴾ ولم يقل "تؤتي الأكل" ليشير إلى وجود صفات هذه الشجرة في ثمارها أيضًا.. بمعنى أن الشجرة الروحانية كما هي طيبة متأصلة فارعة كذلك تكون "ثمارها الروحانية".

وهذه الميزة أيضًا متوفرة في القرآن الكريم، بل هو الوحيد الذي ينفرد بها اليوم بين سائر الكتب، إذ إن العاملين بالقرآن يحوزون على الدرجات العُلى في سلم الروحانيات، وكأن القرآن يتجسد فيهم. وإلى ذلك يشير الحديث الشريف: "كان خُلُقه القرآن" بمعنى أنك -أيها المخاطب - إذا أردت معرفة أخلاق النبي ﷺ فانظر إلى القرآن، لأن ما ورد فيه من تعاليم سامية وصفات حسنة ستجدها متجسدة في محمد ﷺ.

وإلى ذلك يشير أيضًا إلهامٌ تلقّاه سيدنا الإمام المهدي والمسيح عليه السلام الذي هو بمثابة ثمرة طيبة للقرآن في هذا العصر. وهذا الإلهام هو بنصه:" ما أنا إلا كالقرآن، سيَظهر على يدي ما ظهر من الفرقان" (جريدة الحكم، عدد يوم ٥ شعبان ١٣٢٤هـ/ ٢٤سبتمبر ١٩٠٦م، ص١). وكأن هذا الإلهام يبشره بأنه قد جاء مصداقًا لقوله

تعالى: ﴿تؤتي أكلها كل حين﴾.

ب- والمعنى الثاني لقوله تعالى ﴿تؤتي أكلها كل حين﴾ هو أن هذا الوحي الصافي يُكسب من يعمل به نجاةً أبديةً. ذلك أن كلام الله عندما يتأصل في أرض قلب المؤمن ويتحول إلى شجرة طيبة فإنها لا يمكن أن تثمر إذا لم يتعهدها المؤمن بماء صالحِ الأعمال باستمرار.

واعلم أن النجاة الأبدية أمرٌ يعرف في الآخرة ولا شك، وبالتالي يختص هذا المعنى بالآخرة. إلا أننا نعرف أن الكتب السماوية هي وحدها التي تضمن النجاة الأبدية، أما ما اخترعه البشر من كتب ومبادئ فإنها لا تَعِدُ بذلك، بل هي غير قادرة على قطع هذا الوعد، إذ لا أحد يستطيع منح الحياة الخالدة الأبدية إلا الذي هو حيّ بنفسه إلى الأبد ولا يأتي عليه الفناء، وهو الله وحده سبحانه وتعالى. فلا شك أنه لا يستطيع أيُّ كلام أن يضمن لأحدٍ الحياةَ الخالدة، إلا الكلام الذي يترل من عند الله تعالى.

والقرآن يمتاز عن الكتب السماوية في هذا المجال أيضًا. إذ قد بيّن موضوع الحياة الخالدة أيما بيان مع أدلة وبراهين، بحيث لن تجد عُشر معشار هذا الموضوع في الأسفار الأخرى، وإذا كان أحد يشك في قولنا هذا فليأت ببرهانه إن كان من الصادقين.

خامسًا: والميزة الخامسة للكلمة الطيبة، هي أنها تؤتي ثمارها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، وفي هذا إشارة إلى أن ذلك الوحي الطيب لا يأتي بنتائج طبيعية عادية فحسب، بل يأتي بنتائج خارقة للقوانين الطبيعية. ذلك أن العمل بكتابٍ ما إذا أتى بالنتائج الطبيعية، فهذا يعني أن هذا الكتاب صَوَّرَ النواميس الطبيعية أحسن تصوير، ولكن هذا لا يدل على أن صاحب هذا الكتاب يتحكم ويتصرف في هذه النواميس، وإنما يتأكد ذلك إذا جاء الكتاب بنتائج خارقة للعادة إلى جانب النتائج الطبيعية. وأضرب لتوضيح ذلك مثالاً:

هناك كتاب يأمرك بأكل شيء، أو ينهاك عن أكله، فإذا كان الشيء نافعًا وأكلته فسوف تزداد قوةً وصحةً، أما إذا كان الشيء ضارًا وأكلته فسوف تتضرر صحتك. وتكون هذه نتيجة طبيعية، وتأثير تعاليم الكتب الإنسانية لا يعدو هذا القدر من

النتائج. ولكن الكتاب الإلهي يكون أكثر من ذلك تأثيرًا ونتيجةً، لأننا عندما نعمل بتعاليمه فإننا نقوم في الواقع بعَملين لا بعمل واحد، وهذا العمل الإضافي هو ابتغاؤنا مرضاة الله. وهكذا يصبح عملنا طبيعيًّا وروحانيًا في وقت واحد، فلا بد من أن تكون نتائج عملنا أيضًا مزدوجة: طبيعيّة عاديّة وأُخرى روحانية.. أي خارقة للنواميس العادية، وذلك أن نرى من آثار رضوان الله عنا ما يجعل نتائج أعمالنا تمتاز عن النتائج الطبيعية العادية.

والقرآن الكريم ليس له نظير في هذا المجال أيضًا. فقد أظهر الله للنبي ﷺ وأصحابه من الآيات الخارقة للطبيعة ما لا نجد له مثيلاً في أيّة ديانة أخرى، بل لم يزل الله ﷻ يُري هذه الآيات عبر تاريخ الإسلام لمن يعملون بالقرآن بصدقٍ. وليس صعبًا على أي عاقل أن يدرك بذلك أن القرآن نزل من الله الذي يملك السلطان والتصرف على النواميس الطبيعية، إذ ينصر أحبّاءه بطرق غير طبيعية. وقد رأينا في هذا العصر أيضًا مصداقية قوله تعالى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ في شخص سيدنا الإمام المهدي عليه السلام، الذي ببركة عِلمه انكشفت علينا مفاهيم هذه الآية بهذه السعة والكثرة. ولا يزال الله تعالى يخصّ جماعة سيدنا الإمام المهدي بالرعاية والعناية، ويعاملهم بهذه السنن غير العادية، ولذلك تجدون هذه الجماعة في ازدهار وانتشار مستمرّين بالرغم من العداوة الشرسة من قبل المعارضين. فسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر.

وفي الأخير أشار الله تعالى بقوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إلى أن ما ذُكر في الآية من أمور ووعود ليس من قبيل المبالغة ولا الأوهام، بل هي أمور واقعية سوف تختبرونها بأنفسكم في الحياة.

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا

مِن قَرَارٍ ﴿٢٧﴾

شرح الكلمات:

خبيثة: الخبيثُ: النجِس؛ الرديءُ المستكرَه؛ كلُّ حرام. وفي "التاج": الخبيثُ نَعْتُ كل شيء فاسدٍ، ومنه: كلامٌ خبيث. والحرامُ السُّحتُ يُسمى خبيثًا، والمالُ الحرامُ والدمُ وما أشبهَهما مما حرّمه الله. يُقال في الشيء الكريه الطَّعم خبيثٌ مثل الثوم والبصل والكُرّاث، ولذلك قيل: مَن أكلَ من هذه الشجرة الخبيثة فلا يقربنَّ مجلسنا (الأقرب).

فالمراد من ﴿كلمة خبيثة﴾:

١) كلام قبيح رديء لا يستطيع الإنسان سماعه.

٢) كلام يولّد النفور في النفس.

٣) كلام يأمر الله باجتنابه.

٤) كلام لا يأتي بنتائج جيدة.

٥) كلام اختلط فيه الحسن بالقبيح، بحيث ينفع الفرد ولكن لا ينفع القوم.

اجتُثَّتْ: اجتثَّه: اقتلعَه، ومنه ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ﴾ أي استُؤصلتْ. (الأقرب)

قَرار: قَرَّ بالمكان قرارًا: ثَبَت وسكَن. والقَرارُ: ما قُرَّ فيه؛ المستقَرُّ الثابت (الأقرب).

التفسير: لقد ذكر الله هنا علامات الديانات الباطلة أو غير الصالحة للعمل بها وهي كما يلي:

١) أنها تكون قبيحة المنظر.

٢) تخلط بين التعاليم السامية والتعاليم الرديئة.

٣) لا تأتي بنتائج مُرضية سامية، بمعنى أنها غير قادرة على أن تُمكّن العاملين

بمبادئها من الوصال بالله تعالى.

خذوا مثلاً "البهائية" التي قد مضى على تأسيسها ما يقارب ٩٠ سنة، وذلك بدءًا من دعوى "الباب"، ولكن ليس بين أتباعها شخص واحد يمكنه أن يُعلن بأنه استطاع عن طريق العمل بمبادئ البهائية أن يصل إلى الله تعالى وأن الله تعالى يشرِّفه بالحديث معه. بينما على النقيض من ذلك نجد مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام الذي بعثه الله إمامًا مهديًا ومسيحًا موعودًا للأمة الإسلامية، فإنه لم يمضِ على بعثته إلا وقت قصير جدًا، وها نحن اليوم يمكن أن ندل على مئات الأشخاص من أتباعه الذين يتشرفون بكلام الله تعالى.

إن فعل ﴿اجتُثّتْ﴾ جاء لبيان علامات الكلمة الخبيثة أي الديانة الباطلة على النحو التالي:

١) إنّ كتاب تلك الديانة يتحدث عن أمور سطحية جدًّا مما يعرفه الناس عمومًا، وليس عن أمور روحانية دقيقة.

٢) إنّ تعاليمه تكون مؤقتة لا تعرف الدوام والثبات. وهذا هو حال تعاليم البهائية. لقد أجاز "البهاء" الزواج بامرأتين (الأقدس ص١٨)، ولكن جاء "عباس" بعده وألغى هذا الحكم.

٣) إن أحكامه لا تصمد أمام النقد. فإذا اعترضت على مبادئه ترى أتباعه لا يجدون الجواب عليه، فيضطرون للانسحاب من موقفهم لاتخاذ موقف مُغاير. وهذا هو حال التعاليم البهائية أيضًا. إنهم لا يتمسكون بموقف واحد، بل يغيرون موقفهم دائمًا عند مواجهة النقد والاعتراض.

٤) إن تأثير تعاليمه قصير الأمد وتنفر منه القلوب سريعًا. لكن التعليم الحق هو ما يُكتب لهُ الخلودُ بسبب تأثيره البعيد. ومثال هذا التعليم الباطل في فجر الإسلام ما عَرَضَه مسيلمة الكذاب وغيره من تعاليم. ومثاله في هذا العصر ما علّمه "البهاء"، لأن أتباعه أنفسهم لا يعملون بتعاليمه، حتى إنه لا يوجد في أي من القرى البهائية جماعة

من البهائيين تعمل بحسب تعاليم البهاء.

٥) إنه لا يتلقى دعمًا سماويًا؛ بمعنى أنّ أتباعه لا يتشرفون بالوحي السماوي.

٦) إن فروع شجرته الروحانية لا تكون عالية باسقة، بمعنى أنه لا يعلّم الأخلاق السامية الفاضلة، ولا يتحدث عن كل القضايا الحيوية التي تُهُمّ الإنسانية جمعاء.

أما قوله تعالى ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ فقد أشار به إلى مزيد من العلامات للدين الباطل وهي:

أ- إنه لا يتمكن من تثبيت جذوره في أية أرض. بمعنى أنه تعالى لا يسمح لمثل هذه الديانات بأن تتوطد في أي بلد فيختبر الناس تعاليمها بالعمل بها، بل تموت هذه الديانة دونما تجربة واختبار.

ب- إن أهل هذا الدين يضطرون لتغيير مبادئه وأصوله من حين لآخر. إن الإسلام قد أعلن منذ البداية أن "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، و لم يحدث فيه أي تغيير ولا تبديل بعد ذلك أبدًا. ولكنّ الديانة الباطلة تضطر دائمًا لإحداث التغيير في مبادئها. فلو أخذنا البهائيين مثلاً فإنهم يغيّرون أصول البهائية من بلد إلى آخر. فإذا زرت البهائيين في إيران بلاد الشيعة، تجدهم يقدّمون لك مبادئ البهائية وتعاليمها بشكل مغايرٍ تمامًا لما يقدمونه إلى أهل بلاد إسلامية أهلُها من السنيين.كذلك تختلف مبادئهم في أمريكا عمّا هي عليه في إنجلترا، ذلك لكي يجتذبوا أهل هذه البلدان إليهم ولو على حساب أصول البهائية. فعندما زرت إنجلترا جرى حوار بيني وبين سيدة بهائية في أحد المجالس فسألتها: ما هو الجديد الذي قدّمه "البهاء"؟ قالت: إنه أمرَ بالزواج من امرأة واحدة فقط. قلت: ولكنه نفسه تزوج باثنتين؟ فقالت: لقد تزوج بالأخرى قبل إعلان دعواه. قلت: ما دام "البهاء" كان يدّعي بكونه إلهًا، فلا فرق بين أن يتزوجها قبل الدعوى أو بعدها، لأن الإله العليم يجب أن يعرف منذ البداية ماذا سيعرض على الناس من أحكام وتعاليم، فيجب ألا يخالفها بنفسه! ثم إن البهاء قد سمح لابنه عباس بالزواج بسيدة أخرى، لأن زوجته الأولى لم تقدر على الإنجاب!

وكانت هناك سيدة بهائية إيرانية، فهمستْ هذه في أذن صاحبتها الإنجليزية بأن "البهاء" كان اتخذ زوجته الأخرى أختًا له بعد الدعوى، فأعادت السيدة الإنجليزية نفس الكلام. فقلت لها: ولكن "البهاء" رُزق الأولاد من المرأتين كلتيهما، وذلك بعد دعواه أيضًا. فهل تظنين أنه كان ينجب الأولاد من أخته؟! فأخذتْها الدهشة واتجهت إلى صديقتها الإيرانية تسألها: هل هذا صحيح؟ فقالت: نعم. فضحك الحضور جميعًا.

وبالاختصار، فإن البهائيين يُغيّرون أصولهم ومبادئهم في كل بلد جديد. ونفس الحال بالنسبة للمسيحية، حتى إن المسيحيين ينشرون كتبًا يوصون فيها دعاتهم كيف يجب أن يقدِّموا المسيح عليه السلام أمام شعب معين في بلد معين. وقد حدث في أوائل تاريخ المسيحية أن الرومان عندما طالبوا القسس المسيحيين أن يجعلوا "سبْتَهم" يومَ الأحد بدل يوم السبت، رضخوا لطلبهم وجعلوا سبتهم يوم الأحد.

أما الإسلام فإن جميع تعاليمه ثابتة قائمة على أصلها الواحد دونما زيادة ولا نقصان.

يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٨﴾

شرح الكلمات:

يُثبِّت: ثَبَتَ الأمرُ عند فلان: تحقق وتأكد. ثَبَتَ فلانٌ على الأمر: داوَمَه وواظَبَه. ثبَّته وأثْبَتَه: جعله ثابتًا في مكانه. (الأقرب)

يُضلّ: أضلَّه: أهلَكَه. (الأقرب)

التفسير: القول الثابت الذي يثبت به الله المؤمنين هو ثمرة الكلمة الطيبة، بمعنى أن الله تعالى يؤيدها بالإلهام إلى العاملين بها.

لقد وصف الله هذا القول بالثابت لأن هذا الإلهام يتلقاه هؤلاء اليوم وسيتلقاه أجيالهم غدًا، ولن تنقطع سلسلة الإلهام هذه أبدًا.

وهناك سبب آخر أيضًا لوصف هذا القول بالثابت وهو أن هذا الوحي ينفع العاملين به في هذه الدنيا، وكذلك سينفعهم في الآخرة، ولكن ما يخترعه المدعون كذبًا لا ينفع أحدًا بعد الموت.

وقوله تعالى ﴿وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ﴾ فاعلمْ أن الظالمين هم أولئك الذين يريدون إحداث العِوج في كلام الله تعالى، ويصدون عن سبيله.

ويعني قوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاء﴾ أن الله تعالى لا بدّ أن ينجز وعده فيما يتعلق بنشر رسالة القرآن الكريم وتوطيدها في العالم وهلاك أعدائه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ

شرح الكلمات:

البَوار: بارَ يبور بَوْرًا وبَوارًا: هَلَك. بارَت السوقُ والسِّلعةُ: كسَدَت. بارَ العملُ: بطَلَ. بارت الأرضُ بَوْرًا: لم تُزرَع. بارَ زيدٌ عمرًا: جرَّبه واختبره، ومنه: كنّا نبورُ أولادَنا بحبِّ عليٍّ. والبَوارُ: الهلاكُ؛ الكَسادُ. (الأقرب)

فالمراد من ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾: دار الهلاك والخراب؛ دار الاختبار والامتحان؛ دار الكساد والخسران.

التفسير: المراد من قوله تعالى ﴿بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا﴾ هو أن الله تعالى خصّهم بالنعم ولكنهم جحدوها، وصنع بهم معروفًا بإعطائهم "الكلمة الطيبة" ولكنهم تنكروا

له وتسببوا في هلاك القوم.

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٣٠﴾

شرح الكلمات:

القرار: (راجع شرح الكلمات للآية ٢٧ من هذه السورة)

التفسير: أي أن إنكار الكلمة الطيبة يؤدي بصاحبه إلى الهلاك حتمًا، وأن هذا الهلاك مؤلم يحرق قلب المنكر دائمًا.

وَجَعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣١﴾

شرح الكلمات:

أندادًا: جمعُ النِّد وهو: المِثلُ، ولا يكون إلا مخالفًا، يُقال: ما له ندٌّ أي ما له نظيرٌ. (الأقرب)

التفسير: اعلم أن كلمة ﴿أَندَادًا﴾ لا تعني هنا كما يُوهم معناها اللغوي أن هؤلاء الشركاء يخالفون الله في الواقع أو أن المشركين يزعمون أن هؤلاء الشركاء يعادون الله تعالى، وإنما المراد أن وجود شركاء لله يتنافى مع عظمة الله تعالى، لأن الإنسان إذا اعتقد بوجود شركاء مع الله ﷻ، لم يَعُدِ الله إلهًا. وكأنه تعالى يقول لهم: لماذا تُعرضون عن الكلمة الطيبة وتقعون في هذه الأعمال العابثة التي لا معنى لها.

قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ ﴿٣١﴾

شرح الكلمات:

خِلال: جمعُ خُلَّة. خالَّه مُخالَّةً وخِلالاً وخَلالاً: صادَقه وآخاه. الخُلَّةُ: المحبةُ والصداقةُ لا خَلَل فيها. (الأقرب)

التفسير: أي قل يا محمد للمؤمنين بأنهم إذا كانوا يودّون أن تسرع لهم الكلمة الطيبة بثمارها فعليهم أن يؤدّوا الصلاة دومًا، مراعين شروطها كلَّها، وأن ينفقوا أموالهم في سبيل الله سرًّا وعلانية.

وأرى بناءً على هذا الأمر الإلهي أن من ترك الصلاة متعمدًا ولو صلاةً واحدة، فلا يمكن أن يسمّى مُصليًا حقيقيًا.

اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٤﴾

شرح الكلمات:

دائبَين: دَأَبَ في عمله يَدأَبُ دأْبًا ودأَبًا: جدَّ وتعب واستمرّ عليه. (الأقرب)

التفسير: لقد تحدّث الله هنا عما مَنَّ به على العباد من نِعَم وبركات ليذكّرهم أنه

خلق هذه الأشياء والظواهر لمنفعتهم، ولو أنهم بدأوا في عبادتها جهلاً منهم، بدلاً من أن يسخّروها لمصالحهم، فسوف يُعتبرون ناكرين للجميل وسوف تُترع هذه النِعَم من أيديهم.

كما بيّن لهم إن هذه النِعَم مِلكٌ لنا، فلذا سوف نُمَتِّع بها الآن الذين يتبعون كلمتنا. وبالفعل فقد سخّر الله هذه النِّعَم لخدمة الإسلام والمسلمين حتى ملكوا الأيام ولياليها والبحارَ وسفنها.

لقد ورد في الآية السالفة أمران هما: ﴿يُقِيمُواْ الصَّلاةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، وعلاقتهما بهاتين الآيتين هي أن إقامة الصلاة تعني نفيَ الشرك، وكأن الله تعالى حذّر المسلمين سلفًا بأننا سوف نمنحكم عن قريب نِعَمًا كثيرة، فحذارِ من أن تتوانوا في الصلاة بسببها وتقعوا في الأعمال الوثنية.

كما أمرهم في الآية السالفة ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وكأنه حذّرهم أن لا يكونوا كالذين يتخذون بعض هذه النِّعم آلهةً، ويعتبرون بعضَها ملكًا لهم فقط. بل لقد سخّرناها كلّها لخدمتكم ومنفعتكم جميعًا، فلا تتخذوها آلهةً، كما لا تحرموا الآخرين منها، ظانّين أنها مِلكٌ لكم فقط، بل شارِكوا فيها كل المخلوقات، وآتوا كل واحد نصيبه منها، لأننا قد خلقناها لمنفعة الجميع وليس لطائفة معينة.

وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

التفسير: قوله تعالى ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يعني أن الله تعالى قد هيّأ للفطرة الإنسانية كلَّ ما كانت بحاجة إليه، وليس المراد منه أنه تعالى آتى الناسَ كل ما

سألوه، لأن الله تعالى لا يحقق للإنسان دائمًا ما يريده منه، ولكن كلَّ ما تقتضيه الفطرة الإنسانية فإنه يهيئه لها دائمًا. فمثلاً إذا كان الله تعالى قد أودع في فطرة الإنسان مَلَكَة التأثير فإنه تعالى قد خلق هناك في الخارج أشياء تؤثر في الإنسان، وإذا كان خلق فيه مَلَكة التأثير فإنه قد جعل هناك أشياء تقبل تأثيره. فإذا جعل الله للإنسان العين ليرى بها، فإنه قد جعل إزاءها النور الخارجي الذي تبصر به، والمناظر الخلابة التي تتمتع بها. وجعل له الأذن ليسمع بها، وخلق إزاءها الهواء الذي يوصل الأصوات إلى الأذن، كما خلق ألحانًا جميلةً عذبةً يتمتع بها. وخلق في المرء الحيوانات المنوية القادرة على الإخصاب، وجعل إزاءها في المرأة ما يقبل هذه المادة فتنجب. وخلاصة القول إن الله قد لبّى كلَّ مقتضًى للفطرة الإنسانية. وهذا هو المراد من الآية.

وأما إذا قلنا إن الفعل الماضي في قوله تعالى ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ قد جاء بمعنى المضارع تأكيدًا، فالمراد أن ما نعدكم به اعتبِروه وكأنه قد تمّ الوفاء به.. بمعنى أيها المؤمنون المضطهدون بأيدي الكفار في مكة – مع العلم أن هذه السورة مكية – تتمنون أن نعطيكم أرضًا لتتمكنوا من نشر تعاليم القرآن فيها بحرية، وتُرسوا رسالته فيها دون عائق، فها قد حققنا لكم هذه الأمنية، وسوف نسخّر لخدمتكم كل ما في السماء وما في الأرض، ونهيئ لكم كل سبب وسهولة. سوف نعطيكم أرضًا تتمتعون فيها بحرية، وتعملون فيها بتعاليم دينكم، لنكتب للإسلام الازدهار.

وإننا نعيش اليوم أيضًا في عصرٍ قد تعذر فيه العمل بتعاليم القرآن الكريم بصورةٍ كاملةٍ وبحريةٍ تامة. بل إن هناك بلادًا كالبلاد الروسية التي لا يُسمح فيها للمسلم أن يعيش حياته بحسب الشرع الإسلامي. وهناك مناطق أخرى في العالم يصعب فيها تبليغ رسالة القرآن، بل أرى أنه من المستحيل أن ننشر الحق الخالص.. أعني الإسلام بدون الشوائب.. في أي مكان من العالم، إذ إن علماء المسلمين وأعيانهم وأسيادهم وأتباعهم كلهم قد غيّروا أحكام الدين بحسب رغباتهم وأهوائهم، ولو أردنا نشر الإسلام مترَّهًا عن هذه الزيادات والشوائب والبِدع التي أدخلها هؤلاء في التعاليم

الإسلامية لما استطعنا إلى ذلك سبيلاً في أي بلد. ولذلك فعلى كل مؤمن أن يعمل بالوصية الربانية القائلة: "ويقيموا الصلاة"، ويدعو الله تعالى إلى أن يتيح له الفرص لتبليغ رسالة القرآن وتوطيد الإسلام في العالم.

واعلموا أن الله تعالى إنما يتقبل هذه الأدعية من الذين يقيمون الصلاة.. أي الذين يواظبون على أدائها دون انقطاع، أما الذين يتخلفون عن أداء الصلاة بالجماعة دون أي عذر حقيقي شديد فلا يُستجاب دعاؤهم إلا قليلاً. كذلك لن يستجاب الدعاء لنشر الإسلام إلا مِن الذين يقومون بالتضحيات المالية أيضًا في سبيل نصرة الإسلام. لا شكَّ أن جماعتنا تؤدي التضحيات المالية في إطار التبرعات العامة، ولكن يجب أن تعلموا أن هناك بَونًا شاسعًا في هذا الشأن بيننا وبين صحابة الرسول ﷺ. فإنهم كانوا يؤثرون الفقرَ لينفقوا من أجل الدين. وما لم ننفق بهذه الروح فإن رُقِيَّنا مستحيل. لقد أمرنا الله تعالى بالإنفاق، وقدّم كلمة ﴿سِرًّا﴾ على ﴿عَلانِيَةً﴾ ليبيّن لنا أن الإنفاق الحقيقي إنّما يتم بشكل طبيعي تلقائي لا تشوبه شائبة من الرياء والسمعة وغيرهما. والمعلوم أنه في حالة الإنفاق الطبيعي التلقائي لا يحتاج الإنسان لإرغام نفسه، بل يتم ذلك بطريق تلقائي، بل وقد يحاول الإنسان إخفاء ما ينفق. فالآية تدعونا إلى هذا الإنفاق الطوعي التلقائي، وليس إلى أن ننفق على أنفسنا ومن أجل راحتنا بكل شوق ورغبة، بينما تنقبض نفوسنا ونحتاج إلى حث الآخرين لكي ننفق في سبيل الله. وتذكّروا أنه عندما سيجدُ أبناء الجماعة الإنفاقَ على أنفسهم صعبًا، بينما يجدونه في سبيل الدين سهلاً وكأنه عاطفة طبيعية.. أقول عندما يحدث هذا ستنفتح على جماعتنا أبواب الرُّقي والازدهار.

وقوله تعالى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ لا يعني أنكم لا تستطيعون أن تُحصوا نِعَم الله الظاهرة المتوفرة لديكم، لأن هذا المعنى بسيط يعرفه كل إنسان، حتى إن النِّعَم المتمثلة في أجسامنا أيضًا تخرج عن حدِّ الإحصاء. الحق أن الآية إشارة إلى النِّعم والأفضال التي سيمنحهم إيّاها الله في المستقبل، ويقول الله تعالى: سوف نمطر

عليكم نِعمًا وبركات تفوق توقعاتكم وتصوراتكم.

وأشار بقوله تعالى ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ إلى أن مَن تهاون في خدمة الإسلام بعد التمتع بهذه النِّعم يكون ظلومًا وكفّارًا. سيكون ظلومًا لأنه يتسبب في خراب العالم الروحاني الطاهر الذي خلقناه عن طريق الإسلام، وسيُعتبر كفّارًا لأنه يتنكر لنا بعد أن آتيناه كلَّ هذه النِّعم والأفضال والبركات.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٦﴾

شرح الكلمات:

واجنُبْني: جَنَبَه جَنْبًا: دَفَعه. وجَنَبَ زيدًا الشيءَ: نحّاه عنه، ومنه في القرآن ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ أي نَحِّني وإيّاهم. (الأقرب)

الأصنام: جمعُ الصنم وهو: الوَثَنُ، وهو صورةٌ أو تِمثالُ إنسانٍ أو حيوانٍ يُتَّخذ للعبادة؛ أو كلُّ ما عُبِدَ من دون الله. وهو مُعَرَّبٌ. (الأقرب).

إنني لا أقبل هذا الرأي بل الكلمة عندي عربية من مادة (صنم) فيُقال: "صَنَمَت الرائحةُ: خبُثَت. وصَنَمَ العبدُ: قوِيَ. وصنَم الرجلُ: صوَّت. والصَّنَمةُ: قَصبةُ الريش كلُّها؛ الداهيةُ". (الأقرب)

التفسير: لقد سبق أن بيّن الله تعالى قبل آيات أن أنبياءه الأولين لم يملكوا أية أسباب ووسائل ظاهرة للنجاح، ولكنهم نجحوا بأسباب غير مرئية، كذلك سيفوز محمد ﷺ بأسباب غير مرئية، قد ذُكرت بعضها في تمثيل الكلمة الطيبة. أما في هذه الآية فبيّن الله تعالى أن الأساس لنجاح محمد ﷺ قد وُضع منذ آلاف السنين،

وبالأخص بيد إبراهيم عليه السلام. وكان حقًّا علينا أن ننجي أهل مكة من ظلمات الشرك ونخصّهم بكتاب من عندنا، لأننا سبق أن قطعنا وعدًا مع إبراهيم لصالحهم ونحن لا نخلف الميعاد.

يبدو من دعاء إبراهيم عليه السلام هذا أنه كان يعلم بناءً على الوحي أنه سيسود الشرك في مكة في يوم من الأيام، ولذلك دعا ربه قائلا: "وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ"، وذلك عندما لم يكن للشرك أي أثر في مكة. إذ لم يكن يسكن مكَة عندئذ إلا إسماعيل أو بعض من المؤمنين به عليه السلام.

ونكتشف بهذا الدعاء أن التوحيد والشرك يتناوبان دائمًا. فتأتي على الدنيا أيام يزدهر فيها التوحيد، ثم تليها أيام ينتشر فيها وباء الشرك ويسود، وتصبح الأمم الموحِّدة بعد فترة مشركة، وتصير الطوائف المشركة موحِّدة أيضًا. ولا يملك الإنسان أن يقول بأن الذين يصلون إلى الذروة في التوحيد قد أصبحوا في مأمن من الشرك إلى الأبد.

وهذا يشكّل دحضًا لما يزعمه علماء "مقارنة الأديان" من أن عقيدة التوحيد نشأت من عقيدة الشرك. إن القرآن يعلن أن التوحيد والشرك ظاهرتان متناوبتان، وأن التوحيد يسود أولاً على الدوام، ثم يأتي الشرك ليحل محله. وهذا يعني أن عقيدة التوحيد عقيدة سماوية إلهامية، وأن الشرك لا يعني إلا التردي والانحطاط من مقام التوحيد. ولكن علماء مقارنة الأديان يزعمون أنهُ في البداية تولدت فكرة وجود الآلهة في الإنسان نتيجة خوفه وحيرته من الظواهر الطبيعية، فتطورت هذه الفكرة لتُسفر عن الاعتقاد بوجود إله واحد.

هذا الاختلاف بين النظريتين يبدو عاديًا للوهلة الأولى، ولكنه بناءً على الاختلاف نفسه يصرّح أهل الدين بأن الله هو الذي خلق الإنسان، بينما يدّعي هؤلاء العلمانيون بأن الإنسان نفسه هو الذي خلق إلههُ. أي أن الاعتقاد بوجود الإله هو وليد أفكار الإنسان وتوهماته ليس إلا.

وقد يتساءل الإنسان هنا قائلاً: هل كان بإمكان إبراهيم أن يقع في الشرك حتى

يدعو ربه قائلاً: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾؟

والجواب: أن قوى الإنسان وقدراته نوعان؛ منها ما يتعلق بخَلقه وبِنيته مثل الرأس وغيره، فلا يمكن أن يدعو في شأنها ويقول مثلاً: يا رب لا تَدَعْ رأسي يتحول إلى رأسين، إذ لا تبديل لمثل هذا الخلق. ولكن هناك نوعًا آخر من قدرات الإنسان المكتسبة أو الموهوبة، بمعنى أن الإنسان يمكن أن يطور قواه هذه بالجهد والتمرين، أو يعطيه الله إياها فضلاً وهبةً، ليميزه عن غيره من البشر. وبما أن مثل هذه المواهب معرّضة للانحطاط والزوال لذلك كان على الإنسان أن يستمر في الابتهال إلى الله كي يساعده في الحفاظ عليها، رغم وعد الله له بذلك، فإن ابتهاله هذا يمثّل اعترافًا منه بأن هذه النِعَم أو المواهب ليست مِلكًا له، بل هي إنعام وهبة من الله الكريم. وبناءً على هذا المبدأ نفسه لا يبرح الأنبياء في الدعاء والابتهال لكي يمنّ الله عليهم بالنعم المنوطة بالنبوة، ومثالُه هذا الدعاء من إبراهيم عليه السلام أو دعاء النبي ﷺ: ﴿قُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. وانطلاقًا من المبدأ نفسه يقوم الأنبياء عليهم السلام بالاستغفار والتوبة، فينخدع الذين لا يعرفون هذا المبدأ ويظنون خطأً أن الأنبياء أيضًا يقعون في الفواحش والمعاصي فيقومون بالاستغفار والتوبة. والحق أن استغفارهم وابتهالهم إنما يعني أن يمكّنهم الله تعالى من الحفاظ على مقام الطهارة والعصمة الذي يتبوءونه كهِبة من الله تعالى، لأن الحفاظ على هذا المقام السامي أيضًا لا يتم إلا بفضلٍ خاص من الله ﷻ. ومن أجل ذلك ذكّرنا القرآن مرة بعد أخرى بقوله ﴿وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (إبراهيم: ١٣). أي أنه يجب على الإنسان رغم رقيه وتفوقه على الآخرين، أن يستعين بالله تعالى دائمًا، إذ لم يحرز هذا الرقي إلا بفضل الله ورحمته. وإذا فعل ذلك ضَمِنَ هدايته وهداية الآخرين.

رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٧﴾

التفسير: ما أروعه من مشهد لحب الله تعالى. فإبراهيم عليه السلام يقول عن أولاده: يا ربِّ سأعتبرهم أولادي ما داموا سيجتنبون الشرك وإلا فلا.

ونستنبط من هذه الآية أن حب الأولاد بطريق خاطئ يوقع الإنسان في كثير من المعاصي والآثام. إذ يعلّمنا إبراهيم عليه السلام هنا أنه يجب على المرء أن يحب أولاده حبًّا لا يكون سببًا لفساد سلوكهم، لأن الحب الذي يفسد الأولاد ليس حبًا وإنما هو عداوة. فيجب أن يكون اهتمامنا بمصالحهم الأخلاقية والروحانية أكثر من اهتمامنا براحتهم الدنيوية. وإذا لم تصلح حالة الأولاد رغم تذكير الآباء ونصحهم لهم، يجب أن تأتي مرحلة يضطرون فيها لقطع الصلة عن الأولاد، لأنهم إذا شعروا بأن آباءهم يغضون الطرف عن تقصيراتهم انحرفوا بعيدًا عن المنهج السليم، ولكنهم إذا أدركوا أن آباءهم لن يدعوهم دون تأنيب على تقصيراتهم فلا بدّ من أن يصلحوا سيرتهم. فمن واجبنا أن نؤثِرَ حبّ الله على حب الأولاد، فهذا لا يُكسبنا رضوان الله فحسب، بل سيحمي أجيالنا من الهلاك أيضًا.

ثم قال إبراهيم ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.. ذلك أنه أعلن من قبل: أن من يرتكب الشرك من أولادي فإنه ليس مني ولن أعتبره ولدي. ولكن أنبياء الله يكونون رحماء أيضًا. وأن يؤثِر الإنسان حبَّ الله على حب الأولاد شيء، ولكن أن يتوسل إلى ربه طالبًا الرحمة لأولاده فهذا شيء آخر تمامًا. ولذلك يبتهل إبراهيم عليه السلام: يا ربِّ، أرجوك أن تحمي ذريتي من الشرك دائمًا، أما إذا خالف أحد منهم أوامرك فإنني بريء منه ولا أعتبره مني أبدًا، ورغم ذلك فإني أتضرع إليك يا أيها الغفور الرحيم أن تغفر لهم وتصلحهم وتحقق لهم الرقي والازدهار.

لقد وضّح هنا إبراهيم عليه السلام أن سخط الآباء على الأولاد لا يعني أن يصبحوا قساة القلوب نحوهم، بل الطريق الأمثل هو أن يعاقبوا الأولاد في الظاهر بينما يجب أن يدعوا لهم من الصميم بالهداية، ولا يبرحوا ساعين لإصلاحهم، لا أن يتمنوا هلاكهم.

رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

شرح الكلمات:

وادٍ: (راجع شرح الكلمات للآية رقم ١٨ من سورة الرعد)

أفئدة: جمعُ فؤاد. والفؤادُ: القلبُ لتوقُّده، وقيل لتحرُّكه. وقيل هو باطنُ القلبِ، وقيل غشاؤه. وقال جماعةٌ من المفسرين: يُطلقُ الفؤاد على العقل. (الأقرب)

تَهوي: هَوَتِ العُقابُ: انقضَّت على صيدٍ أو غيره. وهَوَتْ يدي له: امتدّت وارتفعت. وهَوَت الريحُ: هبَّتْ. وهَوَت الناقةُ براكبها: أسرَعَتْ. وهوى الشيءُ هَوِيًّا وهُوِيًّا: سقط من عُلُوٍّ إلى أسفل. (الأقرب)

الثمرات: جمعُ الثَّمرة، وهي حملُ الشجرِ؛ النَّسلُ والولدُ. والثمرةُ من اللِّسانِ: طرفُهُ وعَذَبَتُه. وثمرة القلبِ: المودّةُ؛ خلوصُ العهدِ (الأقرب). فالمراد من قوله تعالى ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي أعطِهم الرزقَ من الثمار، أو: لا تدَعْ أعمالهم التي قاموا بها بخلوص النيّة تضيع.

التفسير: يؤكد هنا إبراهيم لله تعالى خلوص نيته في ترك ذريته في تلك البرية.. لكي يستدرَّ بهذا الطريق فضلَ الله ورحمته. وذلك أن الله تعالى ينظر إلى النيات ولا

يضيع أي عمل قام به إنسان بخلوص النية. فيتضرع إبراهيم إلى الله بقوله: إلهي، لقد تركتُ أولادي هنا لخدمة بيتك ولعمرانه. لقد تركتهم عند بيتك المحرم ليعبدوك ويذكروك دائمًا. وقد تركتهم في هذه البرية رغم علمي بأنه لا يتيسر فيها أي شيء من المـُتع المادية. فيا ربِّ، ارحمْ ضراعتي وتقبَّلْ ابتهالي، وحقِّقْ لي الهدف الذي أتركهم من أجله هنا. فاجعلْ قلوب الناس تميل إليهم شوقًا ومحبة وتستمع لنصحهم وتنصاع، وأن ينجح أولادي في إقامة عبادتك في هذه البرية. وأرجوك، يا ربِّ، أن تتولى رعايتهم من الناحية المادية أيضًا، فإني أتركهم في برية أعرف أنه لا زرع فيها ولا خضرة، ومع ذلك أتوسل إليك أن تمدهم ليس بالرزق العادي فحسب، بل بأجود أنواع الثمار، كي يدركوا أن من يضحي في سبيلك فإنك لا تضيعه أبدًا بل تكفل حاجاته المادية أيضًا.

أُنظروا إلى التأثير العميق الواسع لدعاء إبراهيم عليه السلام، كيف أن العالم الإسلامي اليوم كلَّه يقف فداء لاسم مكة المكرمة، وكيف أن القلوب تهفو إلى الكتاب الذي نزل فيها بكل إجلال وإكرام. بل لقد أتاح الله ببعث الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام الآن مزيدًا من الوسائل والفرص لنشر هذه التعاليم المباركة.

هذا هو الجانب الروحي من تأثير هذا الدعاء. أما الجانب المادي منه فعجيب جدًا أيضًا. إذ تجد في هذه البرية التي كانت تفتقر إلى الماء والزرع أنواعَ الفاكهة والثمرات. لقد أكلتُ في مكة عنبًا ورمانًا لم أذق مثلهما لا في الهند ولا في الشام ولا في إيطاليا ولا في فرنسا. تصل إلى مكة الفواكهُ من كل أنحاء العالم، لتؤكد على استجابة دعاء إبراهيم عليه السلام.

أما قوله تعالى ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ فقد قال بعض المفسرين بأن (مِن) هنا للتَّبعيض بمعنى اجعل بعضًا من قلوب الناس تهوي إليهم. ولكن هذا المعنى بديهي البطلان، لأن من يدعو ربه لا يطلب منه شيئًا قليلاً. فلا شكّ أن (مِن) هنا زائدة جاءت للتأكيد. واعلم أن كلمة (الناس) جاءت مُعرّفة ب"ال" التي هي للكمال

والخصوصية، ولو قرأنا الجملة بدون "مِن" أي" أفئدة الناس" فالمراد: قلوب خواص الناس وكامليهم، وإذا أُضيفت إليها (مِن) التأكيدية يكون المعنى: أن يا ربِّ، اجعلْ هؤلاء الذين يتوقون إلى مكة من أكثر الناس إخلاصًا وأطهرهم قلوبًا.

وقد يكون لقوله تعالى: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ معنى آخر – إلى جانب المعنى الذي سبق ذكره – وهو أن لا تضيع عبادات أولادي ولا تضحياتهم لتقصير منهم، بل رتِّبْ عليها يا ربِّ نتائج طيبة برحمتك وفضلك.

أرى أن دعاء إبراهيم عليه السلام هذا يختص ببعثة النبي ﷺ وإلا فإن قوله ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ لم يتحقَّق قبل بعثة الرسول ﷺ. إذ كان العرب وحدهم الذين يحجون البيت الحرام في مكة قبل ذلك، ولكن بعد بعثته ﷺ بدأ الناس يأتون ساعين إلى مكة من كل أنحاء الدنيا. فلا شكّ أن إبراهيم عليه السلام قد دعا بذلك ربّه أن يبعث في مكة رسولاً يحمل رسالة موجهة للعالم أجمع، حتى يجتمع الناس من كل أرجاء المعمورة للحج في مكة ملبِّين نداء هذا المبعوث، وتصبح مكة مركزًا للتوحيد، ويتم تطهيرها من الشرك والمشركين.

وأرى أن الرؤيا التي رأى فيها إبراهيم أنه يذبح ابنه إسماعيل، كان تأويلها أن يترك ابنه في وادٍ غير ذي زرع، إذ إن تركه إياه في مثل هذا المكان كان بمثابة ذبح له ولا ريب.

لم يستطع إبراهيم فهم الرؤيا بمفهومها الصحيح تأثرًا بالتقليد الشائع في ذلك الزمن، إذ كان الناس يقدّمون حينئذٍ قرابين إنسانية، فظنّ إبراهيم أن الله يريد منه ذبح ابنه ذبحًا ماديًا. ولم يخبره الله تعالى بتأويل الرؤيا الصحيح لكي يلغي على يد إبراهيم تقليد الذبائح الإنسانية هذا. فلما استعد فعلاً لذبح ابنه كي يحقق الرؤيا تحقيقًا حرفيًا، أوحى الله إليه أنْ يا إبراهيم قد صدَّقتَ الرؤيا وخرجتَ ناجحًا من الاختبار، فيجب من الآن أن لا يُقتل أيُّ إنسان قربانًا لله على هذا النحو، اللهم إلا الذي يُقتل في الحرب أو في القصاص. وأعلن أنه يجب أن يأخذ القربان الإنساني من الآن طابعًا

معنويًا. فلا تقدّموا لله لحومكم ودماءكم، بل ضحُّوا في سبيله بوقتكم وعلمكم ومالكم لتنالوا به قربه سبحانه وتعالى. فاذبَحْ الآن يا إبراهيم كبشًا من الكِباش دفعًا للبلاء، وجهِّزْ نفسك لتضحية ابنك بطريق آخر وهو أشق وأشد من هذا الطريق.

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاء.﴿٣٩﴾

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا أن إبراهيم ترك ابنه في تلك البرية معتبرًا إياه عملاً صالحًا وبنية صالحة جدًا. وهكذا فإن هذه الآية تمثل ردًّا ضمينًا على ما اتهمت به التوراة إبراهيم عليه السلام. فقد ورد فيها أن إبراهيم أخرج ابنه إسماعيل وزوجته هاجر من البيت وتركهما في تلك البرية النائية إرضاءً لزوجته سارة (التكوين ٣١: ٨-١٢). ومعنى ذلك أن هذا النبي العظيم ظَلَمَ بعض الأبرياء إرضاءً لزوجته! ولكن القرآن يخطِّئ التوراة في ذلك مبرئًا ساحة إبراهيم من هذا الاتهام بلسانه عليه السلام، إذ يسجل دعاءه هذا الذي يقول فيه: يا ربِّ، إنك تعلم نيتي وأنا أترك زوجتي وابني في هذه البرية. إنني لا أتركهما هنا لغرض دنيوي، وإنما أريد به كسب رضوانك فقط.

ثم قال الله تعالى ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ﴾ ردًّا على قول إبراهيم: ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾، وكأن الله تعالى يقول: نعم يا إبراهيم، إننا على علم بنيتك الخالصة، ونعرف أنك لا تفعل ذلك إرضاءً لزوجتك، وإنما ابتغاءً لمرضاتنا فقط.

اَلْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي

لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٤٠﴾

شرح الكلمات:

وَهَبَ: وهب له مالاً: أعطاه إياه بلا عِوَض. (الأقرب).

التفسير: يتحدث القرآن في هذه الآيات عن أحداث الفترة التي كان إبراهيم يرفع فيها قواعد الكعبة المشرفة، لأن القرآن سجّل أدعية إبراهيم هذه عندما رفع القواعد (البقرة:١٢٥-١٣٠). وقد يسأل سائل هنا فيقول: إذن فما الداعي أن يشكر إبراهيم ربّه بهذه المناسبة على أنه وهب له إسماعيل وإسحاق عليهم السلام.

الواقع أن إبراهيم عليه السلام لا يشكر الله فرحًا على ولادة الابنين، وإنما يفرح ويشكر ربّه على أنه مَكَّنَهُ في حياته من وضع الأساس لعبادة الله في العالم عن طريق هذين الابنين. وهذا يعني أن إبراهيم كان قد نذر إسحاق أيضًا لله تعالى، لأن إبراهيم قد شمله في دعائه.

توضّح لنا هذه الآية قوة إيمان إبراهيم عليه السلام. فإنه يترك ابنه البكر في البرية التي يصعب وصول الماء والطعام إليها، وهكذا يدمِّر مستقبل ابنه في نظر أهل الدنيا، ولكن يقينه بوعد الله قوي وراسخ لدرجة أنه يتجه إلى شكره تعالى إِذْ وَهَبَ له على الكِبَر إسماعيل وإسحاق استجابة لتضرعاته فيهما. وكأن إبراهيم ما كان يريد من الله الأولاد حتى في سن الشيخوخة إلا إذا كانوا سيضحون بأرواحهم في سبيل الله تعالى، وتوطيد دينه في العالم. والحق أنه لا يحظى بمثل هذا الإيمان والفداء والإخلاص إلا ذو حظ عظيم كإبراهيم وأمثاله. اللهم صلِّ عليهم وارفع درجاتهم.

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء ﴿٤١﴾

شرح الكلمات:

مقيم الصلاة: قامَ الأمرُ: اعتدلَ. قام على الأمرِ: دام وثبت. وأقامت السوق: نفقت. وأقام الصلاةَ: أدام فعلَها. وأقام للصلاة: نادى لها. وأقام اللهُ السوقَ: جعلها نافعةً (الأقرب). فقوله ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ يعني وفّقنا لإقامة الصلاة واجعلنا الداعين إليها والمروِّجين لها.

التفسير: هناك سؤال يطرح نفسه: لماذا يقول إبراهيم ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ بعد أن تشرّف بالنبوة ورُزق أولادًا شبّوا وكبروا ونذرهم لله تعالى؟ هل بعد كل هذا كان يشك في أنه ربما لن يستطيع إقامة الصلاة؟

والجواب: إنه لم يقصد هذا بالدعاء، وإنما كان يقصد أن يصبح هو وأولاده وسيلة لإقامة الصلاة وترويجها في العالم. ذلك أن إقامة الصلاة تكون فرديةً وقوميةً أيضًا. وإبراهيم عليه السلام يقصد هنا أن يبارك الله في جهوده بحيث لا تزال هناك معه جماعة من مقيمي الصلاة خلال حياته، وكذلك مع أولاده في كل زمن، كي يساعده هؤلاء في إقامة الصلاة وترويجها على المستوى القومي في كل زمن، وذلك بحثّ الناس على الصلاة، وبهذا يصبح داعيًا ومروِّجًا للصلاة إلى يوم القيامة.

هذا المقام أرفع وأعلى بكثير من مقام الذين يقيمون الصلاة بشكل ذاتي، لأنهم يقيمون صلاتهم فقط، أما إبراهيم عليه السلام فيدعو ربّه أن يوفقه ليكون وسيلة لإقامة صلوات الناس جميعًا.

الواقع أن قول إبراهيم ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ يمثّل نبأً ودعاءً لبعث الرسول ﷺ، إذ يقول: كما وفّقتني يا ربّ أن أكون سببًا يساعد الناس على إقامة صلواتهم، كذلك أخرج من ذريّتي شخصًا يجعل الناس مقيمي الصلاة.

رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤٢﴾

شرح الكلمات:

اغفر لي: غفَرَ الشيءَ غَفْرًا: ستَرَه. غَفَرَ المتاعَ في الوعاء: أدخله وستره. غَفَرَ الشيبَ بالخِضاب: غطّاه. وغفر اللهُ له ذنبَه غفْرًا ومغفرةً وغُفرانًا: غطّى عليه. غَفَر الأمرَ بغُفْرته: أصلحه بما ينبغي أن يُصلَح به (الأقرب).

فالمراد من قوله ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي﴾:

١- يا ربّ، استرني أي امحُ وجودي لينكشف وجودك للناس، أي اجعلني تجليًا من تجليات وجهك الكريم.

٢- غطِّ يا رب بَشَرِيَّتي برداء ألوهيتك.. أي لتكن نتائج جهودي لائقةً بعظمتك وشأنك.

٣- أصلِحْ لي الأمور كلها، واسترْ تقصيرات أولادي وحقّقْ لهم الرقي كما وعدتني.

التفسير: ثمة سؤال يجب الرد عليه وهو: أن النبي يكون معصومًا من المعاصي فلماذا يقول إبراهيم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي﴾؟

الجواب: هذا كلام من فم العارف بالله تعالى. ذلك أن الإنسان الذي لا يكون عارفًا بالله يكون أضيق أفقًا ونظرًا، فلا يرى ولا يفكر إلا في الناس حوله. ولكن العارف بالله تعالى يكون بعيد النظر واسع التفكير وينظر إلى الله دائمًا. إنه يدرك جيدًا أن الإنسان لا حقيقة له أمام الله رب العالمين، إذ شتّانَ ما بين الذرة والشمس. أليس هو مما خلقه الله بيده؟ أليست حياته هبة من الله؟ أليس الله هو الذي يمكّنه من الاهتداء. ولنِعْم ما قال الشاعر غالب بالأردية ومعناه: لقد قدّمتُ نفسي لله تعالى، ولكنها أيضًا كانت هبة منه ﷻ.فالحق أنني لم أستطع أن أقدم إليه شيئًا.

وبما أن النبي يكون عارفًا بالله حق العرفان، لذلك يدرك كل الإدراك أنه ما من

عمل ولا إنجاز يحققه إلا ويحققه بتوفيق من الله وبحوله وقوته فقط. كذلك يبتهل إبراهيم عليه السلام إلى ربّه قائلاً: يا ربّ، استر وجودي ولتتجلَّ ذاتك أنت للعالم أكثر فأكثر. وكأن المراد من قول إبراهيم عليه السلام ﴿اغْفِرْ لِي﴾ هو: إنني أتوسل إليك باسم حبك لي، أن استرني بردائك. أي.. امْحُ وجودي حتى تتجلى ذاتك عن طريقي. والبديهي أنه كلمّا تجلّت ذات البارئ تعالى عن طريق العبد كلمّا كان النجاح حليفه.

أما إذا استُخدمت كلمة "الغفران" في حق أناس غير الأنبياء تغيَّرَ معناها بحسب درجات صلاحهم. فإذا دعا أحد من المؤمنين الكُمّل قائلاً: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي﴾ فالمراد، يا ربّ، ارحمني من التقصيرات التي تحول دون إحراز الكمال الروحاني. أما إذا دعا به مؤمن متوسط الدرجة، فالمراد: يا ربّ، استر أخطائي ووفِّقْني للرقي العالي. وإذا دعا به مؤمن عادي فالمراد: يا ربّ، ثبّتْ قدمي على الإيمان، حتى لا تهلكني ذنوبي. وإذا دعا به من يبحث عن الدين الحق فالمراد: يا ربّ، اغفر لي ذنوبي حتى لا تقف عقبةً دون اهتدائي إلى صراطك الحق.

فالحق أن معاني هذه الكلمة تختلف من شخص إلى آخر ككلمة الجبّار، فإذا وُصف بها الله فتعني: الذي يجبر القلوب ويصلحها، وإذا وُصف بها أحد من البشر فتعني: الطاغية المستبد المتجاوز للحدود.

ثم اعلم أن الله تعالى يعلن عن أنبيائه: ﴿اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ﴾ (آل عمران:١٨٠).. وما دام الله يختارهم ويصطفيهم فكيف يمكن أن يقتربوا من المعاصي؟ وإذا كان الله يفصلهم عن أهل الدنيا ويقربهم إليه فكيف يمكن أن يقترب منهم الشيطان الذي يتهرب من قرب الله تعالى، كما صرّح الله بذلك في موضع آخر إذ قال للشيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الحجر: ٤٣). فما دام الله يحمي حتى الإنسان الذي يحظى بأدنى درجة في العبودية والروحانية من هجمات الشيطان، فما بالك بالأنبياء الذين يحظون بحماية خاصة من الله تعالى. كلاّ، لا يستطيع الشيطان الاقتراب منهم.

وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾، لأن هذا الحساب يتم في الدنيا وأيضًا في الآخرة! فالمراد من دعائه -نظرًا إلى الحساب الدنيوي- عندما تظهر نتائج الأعمال، فاستر يا ربِّ، بَشَريتي برداء ألوهيتك، وغطِّ على تقصيراتي، فلا تكون الثمار بحسب الجهود بل تكون عظيمة بحسب شأنك العظيم. وإذا أُريد به الحساب الذي يتم في الآخرة فالمعنى: يا ربِّ عاملني عندئذ بما يليق بشأنك لا بما يكون بحسب جهودي البشرية،كما أرجوك أن تعامل والديّ وأولادي بالمغفرة بحسب درجاتهم الروحانية.

وَلا تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٣﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء ﴿٤٤﴾

شرح الكلمات:

تَشخص: شَخَصَ الشيءُ شُخوصًا: ارتفع. وشَخَصَ بصرُه: فتح عينيه وجعل لا يطرف مع دورانٍ في الشحمة. وشخصَ المـَيّتُ بصرَه وببصره: رفعه. وشخص من بلد إلى بلد: ذهب. وشخص الرجلُ: سار في ارتفاع. وشخص السهمُ: ارتفع عن الهدف (الأقرب).

مُهطِعين: هطَعَ الرجلُ: أسرع مُقبلاً خائفًا؛ أقبَلَ ببصره على الشيء فلم يرفعه عنه. وأهطَعَ البعيرُ: مدَّ عنقَه وصوَّب رأسه. وأهطع في السير: أسرع وأقبل مسرعًا خائفًا، لا يكون إلا مع خوف؛ وقيل: نَظَرَ بخضوع. (الأقرب)

مُقنِعي رءوسِهم: أقنَعَ رأسَه: نَصبَه، وقيل: لا يلتفت يمينًا ولا شمالاً، وجعل طرْفه

موازيًا لما بين يديه. أقنعَ الصبيَّ: وضع إحدى يديه على فأسِ قفاه وجعل الأخرى تحت ذقنه وأماله إليه فقبّله. وأقنع حلقَه وفمَه: رَفَعَه لاستفاءِ ما يشربه من ماء أو لبن أو غيرهما. وأقنع بيديه في الصلاة: رفَعَهما في القنوت. وأقنع رأسَه وعنقَه: رفعه وشَخَصَ ببصره نحو الشيء لا يصرفه عنه. (الأقرب)

هواءٌ: الهواءُ: الشيءُ الخالي؛ الجبانُ لخُلُوِّ قلبه عن الجرأة. (الأقرب)

التفسير: يخاطب الله هنا رسوله ﷺ قائلا: إن تأخر العذاب عن المكيين لا يعني أننا غافلون عن أعمالهم، بل إننا نمهلهم لأسباب أخرى. ولم يصرح بهذه الأسباب لفظًا لأنه قد ذكرها في الآيات السابقة قبل قليل عند الحديث عن دعاء إبراهيم عليه السلام، إذ تضرّع إلى ربه قائلاً: لو خرج من أولادي من يرتكب الشرك فإنني أتبرأ منه كليةً، ولكنك يا ربِّ غفور رحيم، فإذا عاملتَهم برفق مما يحقق لهم الرقي الروحاني فأنت أحق به. ودعاؤه هذا يعني أنه كان يتمنى لهم الهداية، ولذلك أعطى الله سبحانه وتعالى المهلة لأهل مكة الذين كانوا من ذريته، لكي يهتدي منهم من يشاء. ولكن الأشقياء منهم كانوا يتمردون نتيجة هذه المهلة بدلاً من أن يهتدوا، لذلك كان لا بدّ أن تنقلب هذه المهلة إلى العقاب.

لقد قال تعالى: ﴿عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ ولم يقل "عمّا يعمل أعداؤك من مكة"، وذلك لبيان أمرين؛ الأول: أن يؤكد على أن الظالم مهما أُعطي من مهلة فإنه يلقى مصيره المحتوم في آخر المطاف. والثاني: أن يُطَمئن رسوله وأصحابه إذ يقول: نحن نعلم أن هؤلاء ظالمون، ولسنا بغافلين عمّا يصبُّون عليكم من ظلم وعذاب، ولكننا نمهلهم لأن إبراهيم تضرّع إلينا بأن نعامل أولاده برفق وغفران إذا ما صاروا ظالمين. وكنّا قبلنا دعاءه وبسبب ذلك امتنعنا عن إنزال العذاب عليهم إلى الآن.

وبعد توضيح سبب تأخير العذاب أخبر الله رسوله ﷺ بقدوم العذاب. فأشار إلى علامات هذا العذاب قائلاً: إنه سيكون عذابًا مفاجئًا. يصيب الكفار بالدهشة والذهول، فيرفعون رءوسهم لرؤية ما حلّ بهم، وسوف تنبهر عيونهم وستطير قلوبهم

شَعاعًا.

هذا ما حَدَثَ بالضبط يوم فتح مكة. فعندما نقض المكّيون صلحَ الحديبية، زَحَفَ النبي ﷺ بالجيش الإسلامي على مكة دون أن يشعر أهلها بقدومه. وكان أبو سفيان حينذاك قد رجع من المدينة قبل يومين بعد مفاوضات فاشلة مع المسلمين. ففاجأه جيش المسلمين، قبل أن يصل إلى مكة. وعندما رأى أبو سفيان وأصحابه نيران المسلمين المعسكِرين حول مكة بالليل أُخذوا بالدهشة وقالوا: ما رأينا كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا. وبدءوا يخمّنون قائلين: هذه نيران قبيلة كذا أو قبيلة كذا، ولم يخطر بخَلَـدهم أنها نيران جنود المسلمين. وعندما مرّت بهم طلائع الجيش الإسلامي عرفوا الحقيقة. وبينما أبو سفيان في حيرته إذ جاءه العباس ﷺ على بغلةٍ وكان صديقًا لأبي سفيان في الصغر، وقال له: اركب ورائي وإلا ستُقتل. فتردّد في الركوب، فأركبه العباس وراءه على البغلة عُنوةً، وأخذه إلى خيمة النبي ﷺ، وقال له: يا رسول الله، هذا أبو سفيان يريد أن يُسلم. فذعر أبو سفيان وتردّد. فقال له العباس: ألم ينكشف عليك زيف دينك؟ لا تهلك نفسك وأَسلِـمْ. وأخذ يد أبي سفيان ومَدَّها إلى رسول الله ﷺ ليأخذ منه البيعة. لكن الرسول ﷺ تردّد لحظات خوفًا من أن يكون العباس يُكرهه على الإسلام، ولكنه عندما وجد أبا سفيان مصرًا على البيعة أخذها منه.

فقال أبو سفيان: يا رسول الله، إني رئيس مكة وحديث الإسلام، أرجو أن تشرفني شرفًا خاصًا. فقال النبي ﷺ: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فقال أبو سفيان: داري ليست بكبيرة! فقال ﷺ: من دخل الكعبة فهو آمن. فقال: إنها أيضًا لا تسعهم! فقال ﷺ: من أغلق عليه باب داره فهو آمن. فقال أبو سفيان: يكفي هذا. ثم أسرع إلى أهل مكة وأخبرهم بزحف النبي ﷺ، وأعلن للقوم عن الأمان الذي منحه النبي إياهم. (السيرة الحلبية).

ليس من الصعب على المرء أن يقدر معاناة قلوب أهل مكة.. الذين كانوا مغرورين بقوتهم ومنعتهم بحيث لم يتصوروا زوال حكمهم وعلى هذا النحو. فكم

كانت معاناتهم لما سمعوا زعيمهم – الذي ذهب إلى المدينة قبل أيام لعقد اتفاقية مع المسلمين – يعلن: يا أهل مكة! ادخلوا مساكنكم وأغلِقوا عليكم الأبواب إن كنتم تريدون الأمان والحياة، فإن محمدًا الذي أخرجتموه قبل عشر سنوات وحيدًا طريدًا.. قد جاء يقرع أبواب مكة بجيش جرّار عرمرم! لا شكّ أنهم عندما سمعوا الخبر شخصت عيونهم ومدّوا أعناقهم وهم ينظرون إلى الجيش المسلم القادم إليهم. لم يكن أي شيء آخر يشغل بالهم عندئذٍ. لا جَرمَ أن قلوبهم صارت هواءً وطارت شَعاعًا.. عندما أغلقوا عليهم الأبواب وقبعوا في البيوت، وصاروا يطلّون من الشبابيك على الجيش الإسلامي وهو يمر بأزقّة مكة. ألم يقدّم القرآن هنا أَصدَقَ تصوير لحالتهم هذه يا تُرى؟

كم تجرّع المكيون الغصَص عندئذٍ. لا شكّ أنهم كانوا يقولون في أنفسهم: كنا أجبرنا محمدًا ﷺ أن يترك مكة تحت ستار الليل حينما كانت أبوابها مغلقة، وها قد فاجأنا الآن في وضح النهار فاتحًا منتصرًا وأبوابها مغلقة أيضًا. لقد كانت الأبواب مغلقة في ليلة هجرته، لأننا لم نرد أن نعطيه الأمان، وأما اليوم فالأبواب مغلقة مرة أخرى، لأن محمدًا ﷺ أعطانا الأمان. اللهم صلِّ على محمد وبارك وسلم.

الواقع أن التدبير الإلهي الخفي هو الذي جعل المكيين لم يشعروا بزحف النبي ﷺ، مع أنه جاءهم بالطريق العادي الذي يمر به الناس ذهابًا وإيابًا، ولم يكن وصول خبر مسيرة النبي ﷺ إلى المكيين أمرًا صعبًا، ولكن الله تعالى أعماهم عن أخبار المسلمين. وهكذا تحقق النبأ العظيم عن فتح مكة.

وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ

مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٥﴾

التفسير: اعلمْ أن الحديث هنا عن عذاب الآخرة. مع العلم أن القرآن الكريم كلمّا ذكر عن عذاب الدنيا أردَفَه بذكر عذاب الآخرة دائمًا، لأن عذاب الدنيا يشكل دليلاً على عذاب الآخرة.

وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴿٤٦﴾

شرح الكلمات:

ضربنا لكم الأمثال: (راجع شرح الكلمات للآية ٢٥ من هذه السورة)

التفسير: أي أن معظم الناس يسكنون في نفس المناطق والقرى التي أقام فيها قبلهم قومٌ آخرون ذوو منعة ونفوذ، ولكنهم رفضوا رسالة السماء فأُهلكوا بالعذاب. ومع ذلك فإن هؤلاء الساكنين الجدد لا يتّعظون بمصير الذاهبين، وإنما يصرُّون على أن يختبروا عذاب الله بأنفسهم.

وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٧﴾

شرح الكلمات:

الجبال: (راجع شرح الكلمات للآية ٣٢ من سورة الرعد)

التفسير: لقوله تعالى ﴿وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ﴾ مفهومان: الأول: أنه تعالى هو الذي يحدّد النتائج على كل عمل، لذا فإنه لا بدّ أن تبوء مكائدهم ضد رسول الله ﷺ بالفشل، لأن الله تعالى سوف يحبطها. والثاني: أن مكرهم مسجل ومحفوظ عند الله تعالى، بمعنى أنه ﷻ قد أحبط مكائدهم في الدنيا فلن يستطيعوا أن يلحقوا بها الضرر بمحمد ﷺ، ولكنها محفوظة باقية عنده سبحانه وتعالى ليعاقبهم عليها.

وقوله تعالى ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾.. اعلمْ أن كلمة الجبل تعني مجازًا رئيس القوم ومليكهم، كذلك المصاعب والعقبات. ونظرًا للمعنى الأول تعني الآية أن تدابيرهم لم تكن قوية بحيث تنسف الجبال أي تقلب الحكومات وتخلع الملوك كما يستطيع القرآن الكريم ذلك، فما دام ضعفها أمرًا ثابتًا فكيف يمكن أن يحاربوا هذه الحكومة السماوية ويضروا بها محمدًا ﷺ. ذلك إذا اعتبرنا كلمة (إن) نافية.

والمعنى الثاني هو أنه بالرغم من أن مكائدهم كانت قوية محكمة بحيث تزيل جميع العقبات من طريقهم، ولكنهم كانوا يبارزون الله الذي يفوق كلَّ كائن قوةً وقدرةً، لذلك لم تنفعهم مكائدهم إزاءه شيئًا. وذلك إذا اعتبرنا كلمة (إن) شرطية.

فَلا تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٨﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٩﴾

شرح الكلمات:

ذو انتقام: نَقَمَ منه يَنقَم ونقِمَ ينقَم نقَمًا: عاقَبَه. ونَقَمَ عليه أمرَه ونقَمَ منه: أنكره عليه وعَابَه وكَرِهَه أشدَّ الكراهة لسوء فعله. وانتقم منه: عاقبه. (الأقرب)

التفسير: تبيّن لنا هذه الآية أن نِعَم الآخرة تختلف عن نِعَم هذه الدنيا تمامًا، لأنه تعالى يصرح هنا بأنه سيبدّل هذه الأرض والسماوات ويأتي مكانها بغيرها. فلو كانت نِعَم الآخرة هي نفس نِعَم الدنيا فما الداعي لأن يبدل الله هذه السماوات والأرض. فلا جرمَ أن قياس نِعَم الآخرة على نِعَم الدنيا أمر يخالف العقل والمنطق.

وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴿٥٠﴾

شرح الكلمات:

مُقرَّنين: قُرِّنت الأسارى في الحبال أي جُمِّعتْ، وشُدِّد للكثرة، ومنه: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾. (الأقرب)

الأصفاد: جمعُ الصّفَد: وهو العطاءُ؛ والوَثاق. (الأقرب)

التفسير: قد يتساءل هنا أحد فيقول: ما الحاجة أن يتم تقييد المجرمين بالحبال يوم القيامة؟ والجواب: إن حياة الإنسان في العالم الآخر ستكون ظلاً لحياته في الدنيا. وبما أن هؤلاء المجرمين يتعاونون على ارتكاب الجرائم ويحث بعضهم بعضًا عليها، لذلك سوف يتمثل لهم هذا التعاون الشرير على شكل سلاسل يُصفَّدون فيها معًا. والمعنى أن الاتحاد على السوء والتعاون على الإثم لا يزيد صاحبه شرفًا وقوة، وإنما يؤدي به إلى الخِزي والضعف. ولكن معارضي الأنبياء لا يستوعبون هذه الحقيقة، فيتحدون على الإثم والعدوان، وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعًا ويزدادون قوة وعزة. مع أن الاتحاد على الخطة الشريرة مَثَلُه كأن يقيّد أحد نفسه بسلسلة صُفِّدَ بها مجرم آخر. لا

شك أنه كان في السلسلة شخص واحد والآن صار فيها اثنان، وازداد العدد، ولكن هذا لن يزيدهما قوة، بل سوف يزيدهما ضعفًا وعذابًا لأنهما مقيدان في سلسلة واحدة، وتقييد الاثنين في سلسلة واحدة أشد إيلامًا. هذه الحقيقة سوف يكشفها الله يوم القيامة حيث يجمع معارضي الأنبياء في سلسلة واحدة؛ ليخبرهم أن عصاباتكم واتحاداتكم كانت بمثابة تصفيد المجرمين في سلسلة واحدة.

سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥١﴾

شرح الكلمات:

سرابيلهم: السِّربالُ: القميصُ؛ الدِّرعُ؛ وقيل: كلُّ ما لُبس، والجمعُ السرابيل. (الأقرب)

قَطِران: سيّالٌ دُهنيٌّ يؤخذ من شجر الأُبْهُل والأَرْز. (الأقرب)

التفسير: هذه الجملة تعني أن لباسهم هو النار نفسها لا غير، لأن القطران يحترق في النار فكأنه النار نفسها.

وبما أن اللباس يحمي الإنسان من الأضرار فتعني الآية أيضًا أنهم لن يجدوا هناك معينًا ولا نصيرًا، لأن أصدقاءهم وأولياءهم سوف ينقلبون أعداءً لهم. وهذا المعنى يتأكد من آيات أخرى في القرآن حيث ورد فيها أن شركاءهم الذين يتخذونهم آلهةً من دون الله تعالى سوف يتبرأون منهم يوم القيامة ويتخلون عنهم.

لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥٢﴾

التفسير: أي سوف يَجزي الله الناس جميعًا بحسب أعمالهم.

وقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا يعني أنه تعالى يتعجل في الحساب، لأنه ﷻ نفسه يصرح في القرآن أنه يُمهل المجرمين ولا يعاقبهم في عجلة، وإنما المراد من الجملة أنه تعالى عندما يقرر محاسبة أحد يسوّي حسابه بسرعة دونما تأخير.

هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴿٥٣﴾

شرح الكلمات:

بلاغ: البلاغُ: الكفايةُ. (الأقرب)

التفسير: قوله تعالى ﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ﴾ يعني أننا قد أقمنا بذلك الحجةَ على الناس.

أما قوله تعالى ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِ﴾ فاعلم أن القرآن الكريم كسَيف ذي حدين، فإن آياته إذ تحذر أهل الضلال بأن لا يعبدوا إلا الله، فإنها من ناحية أخرى تزيد أهل الإيمان سدادًا وثباتًا على الحق والصدق. وقد أشار الله بقوله هذا إلى أن تعاليم القرآن الكريم بنّاءةٌ وليست هدّامة، فإنه لا يركّز على نقد الديانات السابقة وأتباعها فحسب، بل يقدم أيضًا تعاليم هي أفضل مما في الأسفار السابقة، كما أنها مقبولة لدى العقل السليم. وإذا كان القرآن يقضي على النظام السائد فإنه يقدم عوضًا عنه نظامًا جديدًا هو أفضل وأبقى من أي نظام قديم كان.

بحمد الله